نزهة النَّاظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين

تأليف

العلامة مرعي الكرمي الحنبلي

مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي المصري الحنبلي

المولود في طور كرم بفلسطين والمتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٣ هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق

عبد الله محمد الكندري

دار النوادر ®

بسم الله الرحمن الرحيم

نزهة الناظرين
في
تاريخ من ولي مصر
من الخلفاء والسلاطين

الطبعةُ الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

ردمك : ISBN : ٩٧٨ - ٩٩٣٣ - ٤١٨ - ٢٥ - ٣

سورية - لبنان - الكويت

مُؤسَّسة دار النَّوادِر م.ف - سُورية * شَرِكَة دار النَّوادِر اللُّبْنانيَّة ش.م.م - لُبنان * شَرِكَة دار النَّوادِر الكُوَيتيَّة ذ.م.م - الكُوَيت

سورية - دمشق - ص. ب: ٣٤٣٠٦ - هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب: ١٤/٥١٨٠ - هاتف: ٦٥٢٥٢٨ - فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - الصالحية - برج السحاب - ص. ب: ٤٣١٦ حولي - الرمز البريدي: ٣٢٠٤٦

هاتف: ٢٢٢٧٣٧٢٥ - فاكس: ٢٢٢٧٣٧٢٦ (٠٠٩٦٥)

www.daralnawader.com   info@daralnawader.com

أسَّسها سنة: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م نور الدين طالب المدير العام والرئيس التنفيذي

شكر وتقدير

الحمدُ لله حمدَ الشاكرين، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تَبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فإنَّه ـ من بعد شكر الرب ﷻ، بما مَنّ وتفضّل وأنعم، في تيسير هذا الديوان اللطيف، «**نزهة الناظرين في من ولي مصر من الخلفاء والسّلاطين**» ـ، وجب علينا شكر من كان سبباً في وصول هذا الكتاب بين يَدي القارئ.

بدايةً من مصنّفه الإمام العلاّمة مرعي بن يوسف ـ رحمه الله تعالى ـ، ثم من نسخه واجتهد في حفظه حتى وصل إلى أيدينا.

ثم أَخصُّ بالشّكر الجزيل، الأخ الفاضل أبو محمد مهنا حمد المهنا، مراقب التراث بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ، بما تفضل به مشكوراً، من إهدائي عدد من نسخ المخطوط وهي: نسخة جامعة ييل، ونسخة مكتبة برلين، ونسخة جامعة هارفرد، ونسختَي مكتبة شستربيتي، وقد كان قد جمع هذه النسخ للعمل بالكتاب، ثم

طَرأ ما شغل عن ذلك.

والأخ الفاضل أبـو أنس وائل عزيـز الدّلـة، الذي تفضل واجتهد مشكوراً، بتصوير نسخة الخزانة العامـة بالرّباط، من خزانة المخطوطات بالجامعة الأردنية ـ عمان ـ، والذين تكرموا مشكورين ـ كعادتهم ـ بتصوير النسخة، والتي جعلتها النسخة الأُم في عملي؛ لأنها كتبت في حياة المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، بتاريخ ١٠٢٩هـ.

وأختم بالثَّناء والتقدير، كما يختم بالمسك للأخ الفاضل أبي أنور عبدالله راشد العازمي، اختصاصي المخطوطات بجامعـة الكويت، بما تفضل بـه من تصوير دراسة وتحقيق المخطوط، عبـر شبكة الانترنت، والذي قامت به الدكتورة الفَاضلة أميرة فهمي الدبابسة، بالجامعة الأردنية، بالإضافة إلى تصوير نسخة لانديبرج للمخطوط.

فشكر الله للجميع بما تفضلوا به، وجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم القيامة، اللهم آمين، وصل اللهم أولاً وآخراً على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❐ ❐ ❐

المقدّمة

الحمد لله الذي أشرقت بنور وجهه السّموات والأرض، وصَلُح أمر الدنيا والآخرة، لك الحمدُ حتّى ترضى، ولك الحمد بعده، حمداً يُوافي نعمك، ويكافئُ معروفك، وأُصلّي وأُسلِّم على النبي الأمي محمد، وعلى آله الأئمة الأطهار، وعلى صحبة المجتَبين الأَخيار.

تنوّعت الكتابةُ والتصنيفُ في مادة التاريخ الإسلامي، فجماعة من المؤرِّخين يلتزم بالطابع العام للتاريخ، من حيث ترتيب الحوادث على السنين، وذكر التراجم الواردة فيها، ومثال هذا كثير، بدايةً من إمام المؤرخين الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ، في كتاب **«تاريخ الرسل والملوك»**، وكتاب **«الكامل في التاريخ»** للإمام ابن الأثير ـ رحمه الله تعالى ـ، وكتاب **«البداية والنهاية»** للحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ.

ومالَ نفرٌ آخر من مؤرخي الإسلام إلى تدوين مدينةٍ بعينها، كالخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب **«تاريخ بغداد»**، وكتاب **«تاريخ دمشق»** للحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله تعالى ـ وكتاب **«القند في ذكر علماء سمرقند»** للنسفي ـ رحمه الله تعالى ـ، وهذا فنٌّ مشتهر معروف

في كل الأقطار والأمصار، عبر كل العصور الإسلامية إلى يومنا هذا.

أو ربما تخصص بعض المؤرخين بالاهتمام بطائفة معينة من أفراد المجتمع، فصنفوا لها تواريخ خاصة بها، مثل كتاب **«عيون الأنباء في طبقات الأطباء»** لابن أبي أصيبعة ـ رحمه الله تعالى ـ، وكتاب **«معرفة القراء الكبار»** للذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ، وكتاب **«عَرف البِشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام»** للمرادي ـ رحمه الله تعالى ـ.

أما مصنف هذا الكتاب، الإمام مرعي بن يوسف الحنبلي ـ رحمه الله تعالى ـ، فقد تشكلت مادته التاريخية في عدة صور، فقد ألف في السيرة النبوية كتابه: **«تلخيص أوصاف المصطفى ومن بعده من الخلفا»**.

وظهرت له عدة عناوين في مجال التراجم المفردة، مثل كتابه **«الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية»**، وكتاب **«الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية»**، وكتاب **«تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين»**.

ثم نراه يمزج بين محصله العلمي العقدي، ونفسه التراثي كمؤرخ، فيصنف كتباً مثل **«مرآة الفكر في المهدي المنتظر»**، وكتاب **«الروض النضر في الكلام على الخضر»**.

وصنف كتاباً خاصاً في سلاطين عصره، سماه، **«قلائد العقيان في فضائل آل عثمان»** وكتاباً ذكر فيه تاريخ أهل مصره، وهو الكتاب الذي بين أيدينا المسمى **«نزهة الناظرين في من ولي مصر من الخلفاء**

والسلاطين»، وهو صورة واضحة لانتشار مؤلفات هذا العالم الجليل، فقد وقفت على (٢٤) نسخة من هذا العنوان فقط، مما يدل على قبول هذه المصنفات في الأوساط العلمية، من عصر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، وفي القرون التي تلته، وذلك واضح من مواضع وجود هذه النسخ، وتواريخ نسخها.

اللهم ما كان من صواب وفضل وخير، فمن جودك وكرمك وعطائك الغامر، وما كان من خلل وزلل، فمن نفسي المقصرة والشيطان، وصل اللهم وسلم وبارك، على نبيك وعبدك محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم آمين. آمين.

وَكَتَبَهُ

أبو يحيى عبد الله محمّد الكندري

الاثنين: ٢/ شوال/ ١٤٣٠هـ

الموافق: ٢١/ سبتمبر/ ٢٠٠٩م

الكويت ـ القصور العامرة

❐ ❐ ❐

وَصْفُ النُّسَخِ المُعتَمَدَةِ في التَّحْقِيقِ

إن الناظر لمصنفات الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ـ رحمه الله تعالى ـ، يلاحظ تميزها بعدة أمور، **أولها**: كثرة مصنفاته، **وثانيها**: تنوع مادتها العلمية، **وثالثها**: انتشارها في مكتبات العالم.

فالمتابع لمواضع مصنفاته ـ رحمه الله تعالى ـ يجدها قد توزعت في خزائن مخطوطات العالم، بمصر والشام، والحجاز واليمن، والمغرب وتركيا، وبرلين وفينا، وباريس وليدن، وكامبردج وبرنستون، وسوى ذلك من خزائن المخطوطات بالمشرق والمغرب.

ورابعها: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يسَّر لهذه المصنفات سبيل إخراجها وتحقيقها، فمعظمها ولله الحمد قد تم تحقيقه.

أما عن نسخ مخطوطة «**نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين**» فهي مثال عملي على انتشار كتب المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ في خزائن المخطوطات في العالم، **فقد وقفت على (٢٤) نسخة لهذا الكتاب**.

والمطلع على هذه النسخ يجد أنها تتفاوت في القرب والبعد من

عصر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، أو من حيث الإتقان ودقة الضبط، أو حتى في النقص والكمال، وربما تعرض بعضها لزيادات النسّاخ، كلما ابتعدنا عن عصر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، وقد اخترت منها هذه النسخ.

١ ـ **نسخة الخزانة العامة بالرباط ـ المغرب**، وتقع هذه النسخة في (٨١) ورقة، في كل ورقة صفحتان، في كل صفحة (١٩) سطراً، ورغم أن النسخة قد تعرضت لبعض التلف، خاصة في مواضع العناوين الرئيسية، بالإضافة أن الناسخ قد تصرف في بعض الألفاظ، إلا أن العودة إلى نسخة ييل سددت النقص الذي تعرضت له هذه النسخة.

وقد قدمتُ هذه النسخة على غيرها من النسخ، واعتبرتها النسخة الأصل؛ لأنها كتبت في حياة المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، فقد جاء في آخرها قول الناسخ ـ رحمه الله تعالى ـ والذي لم يذكر اسمه قوله:

«وكان الفراغ من تعليق هذا التاريخ العظيم بمصر، يوم التاسع من ذي الحجة الحرام، من شهور سنة تسع وعشرين وألف».

٢ ـ **نسخة جامعة ييل**، وتقع هذه النسخة في (١٠٧) ورقة، في كل ورقة صفحتان، في كل صفحة (١٩) سطراً، وقد استفدت من هذه النسخة في تصويب ما فات في النسخة المغربية، من تعرض بعض مواضعها للتلف أو التحريف، وجعلتها ما بين معقوفتين [ ].

وتميزت هذه النسخة بحسن الخط وجودة الترتيب، وتمام الضبط للألفاظ، وجاء في آخرها تاريخ نسخها من دون ذكر اسم الناسخ

ـ رحمه الله تعالى ـ قوله:

«وكان الفراغ من تعليق هذا التاريخ العظيم بمصر، يوم الثلاثاء المبارك... وعشرون من ذي الحجة المباركة، سنة ١١٨٢ بعد الهجرة النبوية».

وقد صنع الناسخ ـ رحمه الله تعالى ـ في آخر النسخة عدة فهارس، لأسماء الخلفاء والسلاطين، والمواضع المذكورة في الكتاب، وفهرس خاص للحوادث التي مرت فيه.

٣ ـ نسخة مكتبة برلين، وتقع هذه النسخة في (٦٤) ورقة، في كل ورقة صفحتان، في كل صفحة (١٩) سطراً، ورغم أن النسخة كتبت في حياة المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، فقد جاء في آخرها قوله:

وكان الفراغ منه نهار الخميس، يوم سبعة وعشرين، من شهر ربيع الآخر، سنة ١٠٣١هـ، على يد الفقير الحقير خليل... الحنبلي ابن الفقير محمد بن أحمد.

إلا أنها نسخةٌ ملفقة، فالأوراق من (١ ـ ١١) مختلفة عن بقية الأوراق من (١٢ ـ ٦٤)، ولم يمنع ذلك من الاستفادة في تسع مواضع منها، أشرت إليها في مكانها؛ لاستكمال بعض النقص في النسختين السابقتين.

وللكتاب عدة نسخ أخرى، منها ثماني نسخٍ بدار الكتب المصرية، ونسخة جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وأربع نسخٍ في المكتبة الوطنية

بباريس، ونسختي مكتبـة شستربيتي ـ دبلن ـ ايرلنـد، ونسخـة جامعـة هارفارد، ونسخة المكتبة الوطنية بفينا، ونسخة جامعة كامبردج، ونسخة لاندبيرج، ونسخة المتحف البريطاني، ونسخة جامعة برنستون.

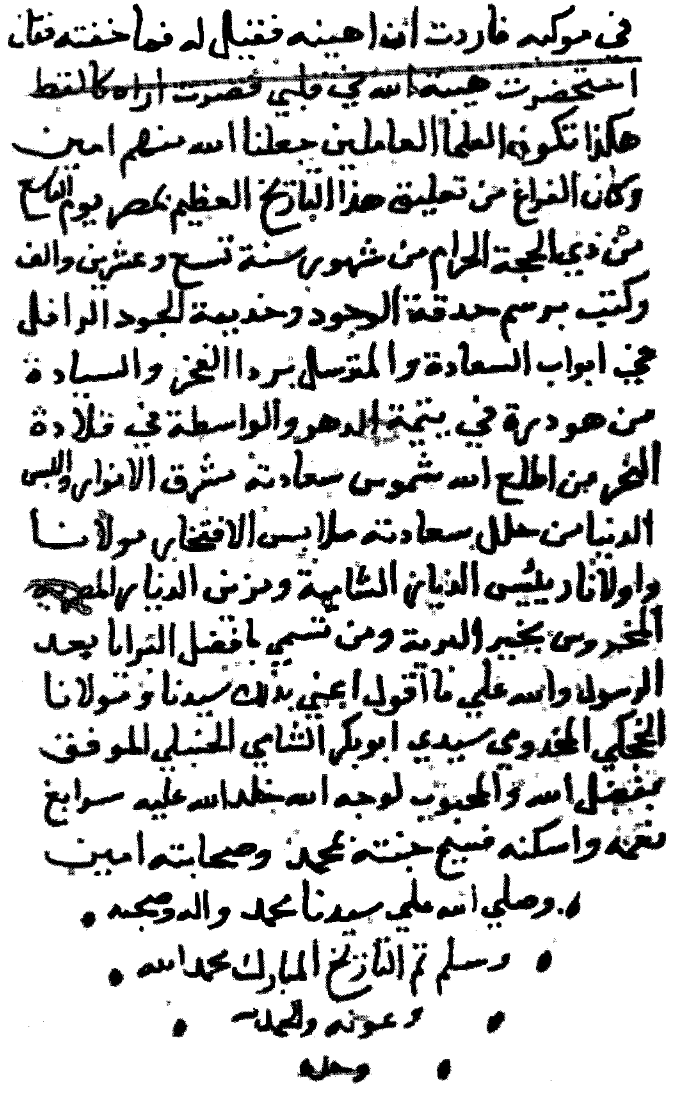
❐ ❐ ❐

صور المخطوطات

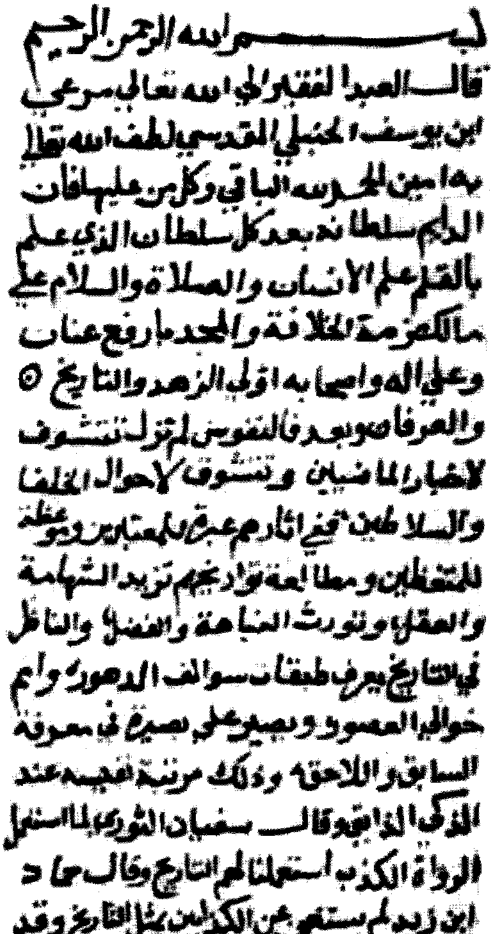
بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير الى الله تعالى مرعي بن يوسف
الحنبلي المقدسي لطف الله تعالى به آمين الحمد لله
الباقي وكل من عليها فان الدائم سلطانه بعد كل سلطان
الذي علم بالقلم علم الانسان والصلاة والسلام على
مالك أزمة الخلافة والمجد بأرفع عنان وعلى آله
وأصحابه وخلفائه أولي الزهد والتاريخ والعرفان
وبعد فالنفوس لم تزل تتشوق لأخبار الماضين
وتتشوق لأحوال الخلفا والسلاطين ففي آثارهم
عبرة للمعتبرين وموعظة للمتعظين ومطالعة
تواريخهم تزيد النباهة والعقل وتورث النباهة
والفضل والناظر في التاريخ يعرف طبقات سوالف
الدهور وأمم خوالي العصور ويصير على بصيرة
في معرفة السابق واللاحق وذلك مرتبة عند الموفق
الحاذق قال سفيان الثوري لما استعمل الرواة
الكذب استعملنا لهم التاريخ وقال حماد بن زيد
لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ وقد أحببت
أن أذكر هنا على سبيل التلخيص تاريخ من ولي مصر
مصر من الخلفا والسلاطين جعلتها نبذة نخبة

صورة الورقة الأولى من نسخة الخزانة العامة بالرباط

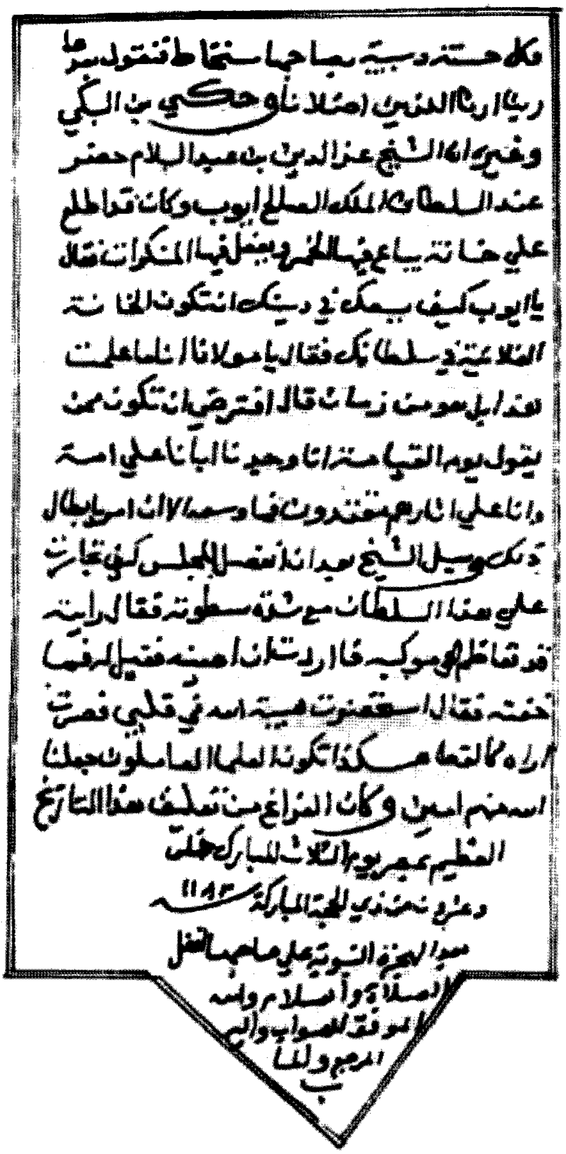

في موكبه فأردت أن أحييه فقبل له فما خفته فقال
~~استحضرت هيبة الله في قلبي فصرت أراه كالنط~~
هكذا تكون العلماء العاملين جعلنا الله منهم آمين
وكان الفراغ من تعليق هذا التاريخ العظيم عصر يوم التاسع
من ذي الحجة الحرام من شهور سنة تسع وعشرين وألف
وكتب برسم حدقة الوجود وحديقة الجود الراقي
في أبواب السعادة والمتوسل ببرد الفخر والسيادة
من هو درة في يتيمة الدهر والواسطة في قلادة
الفخر من أطلع الله شموس سعادته مشرق الأقوار وألبس
الدنيا من حلل سعادته ملابس الافتخار مولانا
وأولانا ريحانة الدنيا الشامية ومزين الدنيا بالمصرية
المحروس بخير الحرمة ومن تسمى بأفضل البرايا بعد
الرسول والله على ما أقول أعني بذلك سيدنا ومولانا
الحلبي المخدومي سيدي أبو بكر الشامي الحنبلي الموفق
بفضل الله والمحبوب لوجه الله خلد الله عليه سوابغ
نعمه وأسكنه فسيح جنته بمحمد وصحابته آمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم تم التاريخ المبارك بحمد الله
وعونه والحمد لله
وحده

صورة الورقة الأخيرة من نسخة الخزانة العامة بالرباط

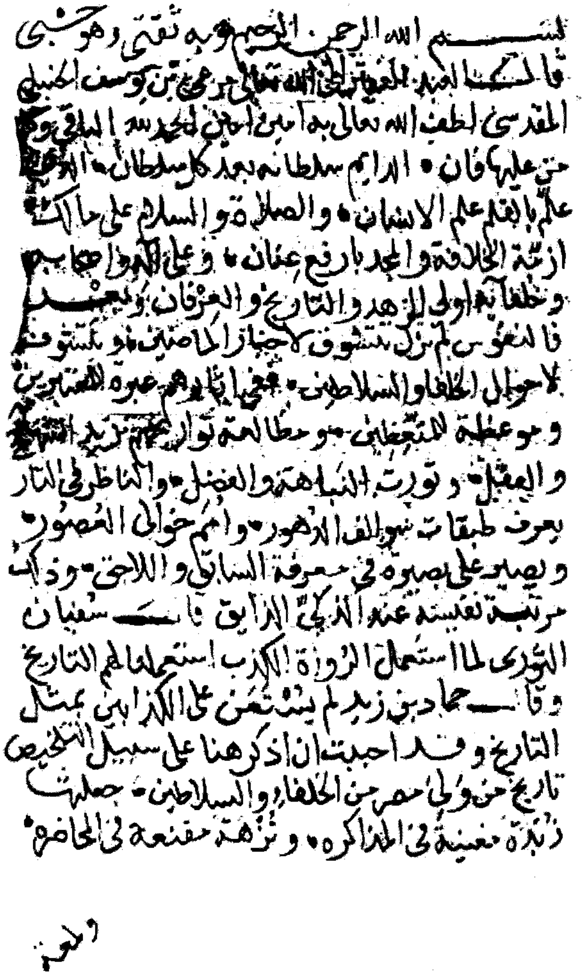


بسم الله الرحمن الرحيم
قال العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي
ابن يوسف الحنبلي المقدسي لطف الله تعالى
بها بين الحمد لله الباقي وكل من عليها فان
الدايم سلطانه بعد كل سلطان الذي علم
بالقلم علم الإنسان والصلاة والسلام على
مالك أزمة الخلافة والمجد ما رفع عنان
وعلى آله وأصحابه أولي الزهد والتاريخ
والعرفان وبعد فالنفوس لم تزل تتشوف
لأخبار الماضين وتتشوق لأحوال الخلفا
والسلاطين ففي آثارهم عبرة للمعتبرين وموعظة
للمتعظين ومطالعة تواريخهم تزيد الشهامة
والعقل وتورث النباهة والفضل والناظر
في التاريخ يعرف طبقات سوالف الدهور وأمم
خوالي العصور ويصير على بصيرة في معرفة
السابق واللاحق وذلك مرتبة نفيسة عند
الذكي الحاذق وقال سفيان الثوري لما استعمل
الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ وقال حماد
ابن زيد لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ وقد
أحببت

صورة الورقة الأولى من نسخة ييل


فكم هتنه دينية بعاجها ستماط فتتولد منها
ربنا ارنا الذين اضلانا وحكي ابن السبكي
وغيره ان الشيخ عز الدين بن عبد السلام حضر
عند السلطان الملك الصالح ايوب وكان قد اطلع
علي حانات يباع فيها الخمر ويفعل فيها المنكرات فقال
يا ايوب كيف يسعك في دينك ان تكون الحانات
الفلانية في سلطانك فقال يا مولانا انا ما علمت
هذا انه من زمان قال افترضى ان تكون ممن
يقول يوم القيامة هذا انا وجدنا اباءنا على امة
وانا علي اثارهم مقتدون فما وسعه الا ان امر بابطال
ذلك وسئل الشيخ بعد ان انفصل المجلس كيف تجاسرت
علي هذا السلطان مع شدة سطوته فقال رايته
قد تعاظم في موكبه فاردت ان اهينه فقيل له فما
خفته فقال استحضرت هيبة الله في قلبي فصار
اراه كالقط هكذا تكون العلماء العاملون جعلنا
الله منهم امين وكان الفراغ من تعليق هذا التاريخ
العظيم عصر يوم الثلاث المبارك حادي
وعشرين شهر ذي الحجة المباركة سنة ١١٩٣
من الهجرة النبوية على صاحبها افضل
الصلاة والسلام والله
الموفق للصواب واليه
المرجع والمآ
ب

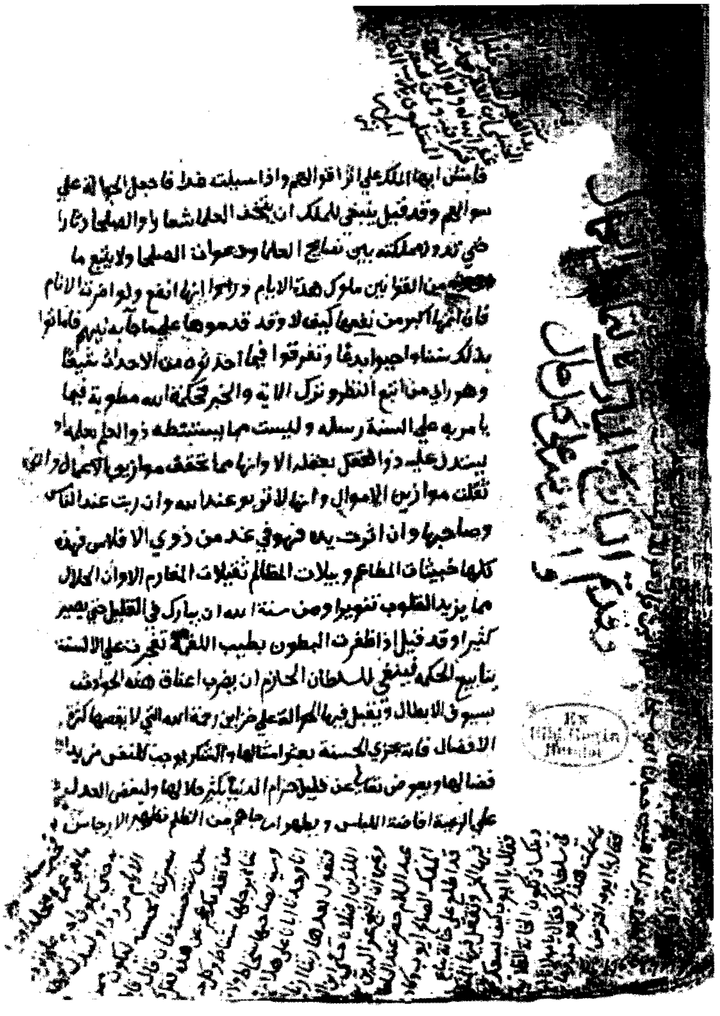
صورة الورقة الأخيرة من نسخة ييل



بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي وهو حسبي
قال العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي بن يوسف الحنبلي
المقدسي لطف الله تعالى به آمين آمين الحمد لله الباقي وكل
من عليها فان الدائم سلطانه بعد كل سلطان الذي
علم بالقلم علم الإنسان والصلاة والسلام على حائز
أزمة الخلافة والمجد بأرفع عنان وعلى آله وأصحابه
وخلفائه أولي الزهد والتاريخ والعرفان وبعد
فالنفوس لم تزل تتشوق لأخبار الماضين وتستوفق
لأحوال الخلفاء والسلاطين فحيا آثارهم عبرة للمعتبرين
وموعظة للمتعظين ومطالعة تواريخهم تزيد الثبات
والعقل وتورث النباهة والفضل والناظر في التاريخ
يعرف طبقات من سلف في الدهور وأيام خوالي العصور
ويصير على بصيرة في معرفة السابق واللاحق وذلك
مرتبة نفيسة عند الذكي الرائق قال سفيان
الثوري لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ
وقال حماد بن زيد لم يستعن على الكذابين بمثل
التاريخ وقد أحببت أن أذكر هنا على سبيل التلخيص
تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين جعلته
زبدة مغنية في المذاكرة ونزهة مقنعة في المحاضرة

ولعمري

صورة الورقة الأولى من نسخة مكتبة برلين


فانتش ايها الملك علي اثر اقوالهم واذا سبلت هذا فاجعل الحيا له علي
سوالهم وقد قيل ينبغي للملك ان يتخذ العلما شعارا والصلحا دثارا
حتى تدور مملكته بين نتائج العلما ودعوات الصلحا ولا يتبع ما
[illegible] من القول بين ملوك هذه الايام ورايتها انها انفع ولو افرزته الانام
فانها ابرمن نفعها كيف لا وقد قدموها عليها جابذيهم فاماتوا
بذلك سننا واحيوا بدعا وتفرقوا فيما احدثوه من الاحداث شيعا
وهو راي منا تبع النظر ونزل الاية والخبر فحكمة الله مطوية فيها
با مربه علي السنة رسله وليست مما يستنبطه ذو الحلم بعلمه
يستدل عليه ذو العقل بعقله الا وانها مما تخفف موازين الاعمال وان
ثقلت موازين الاموال وانها لا تربو عند الله وان ربت عند الناس
وصاحبها وان اثرت يده فهو في عد من ذوي الا فلاس فهذه
كلها خبيثات المطاعم وبيلات المظالم ثقيلات المغارم الا وان الحلال
مما يزيد القلوب تنويرا ومن سنة الله ان يبارك في القليل حتى يصير
كثيرا وقد قيل اذا ظفرت البطون بطيب اللقمة تفجرت علي الالسنة
ينابيع الحكمة فينبغي للسلطان الحازم ان يضرب اعناق هذه الحوادث
بسيوف الابطال ويقبل فيها المراد علي ضرابين رحمة الله التي لا ينقصها كثرة
الافضال فانه تجزي الحسنة بعشر امثالها والشكر يوجب للنعم مزيدا
فضالها ويعرض نفسه عن قليل حرام الدنيا بكثير حلالها وليعض الحد ليرغب
علي الرعية افاضة الملابس ويطهر ايامه من الظلم فلطهر الا رجاس و

صورة الورقة الأخيرة من نسخة مكتبة برلين

تَرْجَمَةُ ٱلْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ

٩٨٨ ـ ١٠٣٣هـ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، لقد تيسّر لي ـ بحمد الله وتوفيقه ـ النظر في كتاب «**فوائد الارتحال ونتائج السفر في أعيان القرن الحادي عشر**» لمصنفه **مصطفى بن فتح الله الحموي ـ رحمه الله تعالى ـ**، والذي توسع في ترجمة الإمام المصنف **مرعي بن يوسف الحنبلي ـ رحمه الله تعالى ـ**، فنقلتها بنصها واكتفيت بها، وفصلت بعد ذلك في هذه المصنفات، وبيّنت المطبوع منها والمخطوط، وهذه هي الترجمة كما ذكرها الحموي ـ رحمه الله تعالى ـ.

مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف بن أحمد الكرمي، نسبة لطور كرم، قريةٌ بقرب نابلس، ثم المقدسي، الحنبلي.

أحد أكابر علماء الحنابلة بمصر، كان إماماً فقيهاً محدثاً، ذا اطلاعٍ واسعٍ على نقول الفقه ودقائقه، ومعرفةٍ تامّةٍ بالعلوم المتداولة.

وُلد بطور كرم، في ربيع الأول، سنة ثمان وثمانين وتسع مئة، وحفظ القرآن وجوّده ببيت المقدس، وأخذ عن محمد المرداوي الشامي،

وعن القاضي يحيى الحجاوي، وقدم مصر وتوطّنها، وأخذ بها عن محمد حجازي الواعظ، والمحقق أحمد الغنيمي، وكثير من مشايخ المصريين، وأجازه شيوخه.

وتصدر للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر، ثم تولى المشيخة بجامع السلطان حسن، ثم أخذها عنه العلاّمة إبراهيم الميموني عصريه، ووقع بينهما من المراسلات ما يقع بين الأقران، وألف كلٌ منهما في الآخر رسائل.

وكان منهمكاً على العلوم إنهماكاً كلياً، فقطع زمانه بالإفتاء والتدريس، والتحقيق والتصنيف، ووجّه وجهته، وصرف همّته، إلى تحرير التصنيف، وتهذيب التّرصيف، فقطع لذلك زمانه، وقاطع إخوانه وخلاّنه، في التصانيف المفيدة، والتآليف العديدة؛ بحيث سارت بها الرُّكبان، في أطراف البلدان، ومع كثرة الأضداد، والأعداء والحساد، ما أمكن أحداً أن يطعن فيها، ولا أن ينظر بعين الازدراء إليها، بل هي في السهى بموجب التحقيق، ممدوحةً لأولي النهى والتدقيق.

فمنها كتاب «غاية المنتهى» في الفقه، قريبٌ من أربعين كُرّاساً، وهو متنٌ جمع من المسائل أقصاها وأدناها، بحيث يصدق أن يقال في حقه: «ما لِهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها» مشى فيه مشي المجتهدين في الصحيح، والاختيار والترجيح، وكتاب «دليل الطالب» في الفقه، نحو عشر كراريس.

و«دليل الطالبين لكلام النحويين»، و«إرشاد من كان قصده إعراب

لا إله إلا الله وحده»، و«مقدمة الخائض في علم الفرائض»، و«القول البديع في علم البديع»، و«أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات»، و«الآيات المحكمات والمتشابهات»، و«قرة عين الودود بمعرفة المقصور والممدود»، و«الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة»، و«بديع الإنشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات»، و«بهجة الناظرين وآيات المستدلين» نحواً من عشرين كراساً يشتمل على العجائب والغرائب، وفرائد الفوائد.

و«البرهان في تفسير القرآن» لم يتم، و«تنوير بصائر المقلّدين في مناقب الأئمة المجتهدين»، و«الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية»، و«الأدلة الوفية بتصويب قول الفقهاء والصوفية»، و«سلوك الطريقة في الجمع بين كلام أهل الشريعة والحقيقة»، و«روض العارفين وتسليك المريدين»، و«إيقاف العارفين على حكم أوقاف السلاطين»، و«تهذيب الكلام في حكم أرض مصر والشام»، و«تشويق الأنام إلى الحج إلى بيت الله الحرام»، و«محرك سواكن الغرام إلى حج بيت الله الحرام».

و«قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن»، و«أرواح الأشباح في الكلام على الأرواح»، و«فرائد الفكر في المهدي المنتظر»، و«إرشاد ذوي الأفهام لنزول عيسى ـ عليه السلام ـ»، و«الروض النّضر في الكلام على الخضر»، و«تحقيق الظنون بأخبار الطاعون»، و«ما يفعله الأطباء والداعون لرفع الطاعون»، و«تلخيص أوصاف المصطفى وذكر من بعده من الخلفا»، و«إتحاف ذوي الألباب في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ

﴿مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، و«إحكام الأساس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾»، و«تنبيه الماهر على غير ما هو المتبادر من الأحاديث والآيات الواردة في الصفات»، و«فتح المنان بتفسير آية الامتنان»، و«الكلمات البينات في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾».

و«أزهار الفلاة في آية قصر الصلاة»، و«تحقيق الخلاف في أصحاب الأعراف»، و«تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان»، و«توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين»، و«توضيح البرهان في الفرق بين الإسلام والإيمان»، و«إرشاد ذوي العرفان لما في العمر من الزيادة والنقصان»، و«اللفظ الموطا في أبان الصلاة الوسطى»، و«قلائد العقيان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾».

و«مسبوك الذهب في فضل العرب»، و«شرف العلم على شرف النسب»، و«شفاء الصُّدور في زيارة المشاهد والقبور»، و«رياض الأزهار في حكم السماع والأوتار والغناء والأشعار»، و«تحقيق الرجحان بصوم أيام الشك من رمضان»، و«تحقيق البرهان في شأن الدخان الذي يشربه الناس الآن».

و«رفع التلبيس عمن توقف فيما كفر به إبليس»، و«تحقيق المقالة هل الأفضل في حق النبي الولاية أو النبوة أو الرسالة»، و«الحجج البينة في إبطال اليمين مع البينة»، و«المسائل اللطيفة في فسخ الحج إلى العمرة الشريفة»، و«المنير في استعمال الذهب والحرير»، و«دليل الحكام في

الوصول إلى دار السلام».

و«نزهة الناظـرين في فضل الغـزاة والمجـاهـدين»، و«بشرى من استبصر وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر»، و«بشرى أولي الإحسان ومن يقضي حوائج الإخوان»، و«الحكم الملكية والكلم الأزهرية»، و«إخلاص الوداد في صدق الميعاد»، و«سلوان المصاب بفرقة الأحباب»، و«تسكين الأشواق بأخبار العشاق»، و«منيـة المحبين وبغيـة العاشقين»، و«نزهة المتفكر»، و«لطائف المعارف»، و«المسرة والبشارة في فضل السلطنة والـوزارة»، و«نزهـة النـاظـرين في تاريخ من ولـي مصـر من الخلفـاء والسلاطين»، و«قلائد العقيان في فضائل سلاطين بني عثمان»، وغيرِ ذلك من فتاوى ورسائل نافعة، تداولها الناس، ووقف عليها الذاكر والناسي.

وكـان بينـه وبين العلامـة إبراهيم الميمـوني، ما يقع بين العلماء المُتعاصرين، وتنازعـا على وظائـف بمصر، وكانت الغلبة للميموني، وألّف صاحب الترجمة في شأن ذلك رسالةً سماها «النادرة الغريبة والواقعة العجيبة»، مضمونها الشكوى من الميموني، والحطِّ عليه، وله «ديوان شعر» منه قوله:

يَا سَاحِرَ الطَّرْفِ يَا مَن مُهْجَتِـي سَـحَرَا
كَـمْ ذَا تَنَـامُ وَكَـمْ أَسْـهَرْتَنِي سَـحَرَا
لَـوْ كُنـتَ تَعْلَـمُ مَـا أَلْقَـاهُ مِنـكَ لَمَـا
أَتْعبْـتَ يَـا مُنْيَتِـي قَلْبـاً إلَيْـكْ سَـرَا

هــذَا الْمُحِــبُّ لَقَــدْ شَــاعَتْ صَــبَابَتُهُ

بِالروْحِ وَالــنَّفْسِ يَوْمــاً بِالْوِصَــالِ شَـرَا

يَـا نَـاظِرِيْ نَـاظِرِيْ بِالــدَّمْعِ جَـادَ وَمَـا

أَبْقَيْــتَ يَــا مُقْلَتِــي فِــي مُقْلَتــي نَظَــرَا

يَــا مَــالِكي قِــصَّتِي جَــاءَتْ مُلَطَّخَــةً

بِالــدَّمْعِ يَــا شَــافِعِي كَــدَّرْتَهَا نَظَــرَا

عَـسَاكَ بِـالحَنَفِيْ تَـسْعَى عَلَـى عَجَـل

بِالْوَصْـلِ للحَنبَلِـي يَـا مـن بَـدَا قَمَـرا

يَــا مَــن جَفَــا وَوَفَّــى لِلغَيْــرِ مَوْعِــدَهُ

يَــا مَــنْ رَمَانَــا ويَــا مَــنْ عَقْلُنَــا قَمَــرَا

الله ينــصفنا بِالوَصْــلِ مِنــكَ عَلَــى

غَيْظِ الرَّقِيـبِ بِمَـن قَـدْ حَـجَّ وَاعْتَمَـرا

يَــا غَــامِراً لكَثِيــبٍ بِالــصُّدُور كَمَــا

أَنَّ الــسِّقَامَ لِمَــن يَهْــوَاكَ قَــدْ غَمَــرا

قَــلَّ الــصُّدُودُ فكَــمْ أَسْــقَيْتَ أَنفُــسَنَا

كَــأْسَ الحُمَــامِ بِــلاَ ذَنــبٍ بَــدَا وَجَــرَا

وَكَمْ جَرَحْتَ فُؤَادِيْ كَمْ ضَـنَا جَـسَدِيْ

أَلَيْسَ دَمْعِيْ حَبِيبِـيْ مُذْ هَجَـرْتَ جَـرَا

فَالـشَّوْقُ أَقْلَقَنِـي وَالْوَجْـدُ أَحْرَقَنِـي
وَالجِسْمُ ذَابَ لما قَـدْ حَـلَّ بِـي وَطَـرا
وَالْهَجـر أَضْـعَفَنِي وَالْبُعْـدُ أَتْلَفَنِـي
وَالـصَّبْرُ قَـلَّ وَمَـا أَدْرَكْـتُ لِـيْ وَطَـرَا
أَشْكُوكَ لِلْمُصْطَفَى زَيْنِ الْوُجُـودِ وَمَـنْ
أَرجُوهُ يُنقِـذُنِي مِـن هَجْـرِ مَـنْ هَجَـرَا

وقوله:

يُعَاتِـبُ مَـن فِـي النَّـاسِ يُـدْعَى بِعَبْـدِهِ
وَيَقْتُـلُ مَـن بِالْقَتْـلِ يَرْضَـى بِعَمْـدِهِ
وَيُـشْهِرُ لِـي سَـيْفاً وَيَمْـرَحُ ضَـاحِكاً
فَيَـا لَيْـتَ سَـيْفَ اللَّحْـظِ تَـمَّ بِغَمْـدِهِ
فَلِلَّـهِ مِـن ظَبْـيٍ شَـرُودٍ وَنَـافِرٍ
يُجَـازِيْ جَمِـيلاً قَـدْ قَنِعْـتُ بِـضِدِّهِ
يُبَـالِغُ فِـي ذَمِّـي وَأَمْـدَحُ فِعْلَـهُ
فَـشُكْراً لِمَـن مَـا جَـارَ يَوْمـاً بِـصَدِّهِ

وقوله:

لَـئِن قَلَّـدَ النَّـاس الأَئِمَّـةَ إِنَّنِـي
لَفِي مَذْهَبِ الْحَبْـرِ ابـنِ حَنبَـلَ رَاغِـبُ

أُقَلِّـــدُ فَتْـــوَاهُ وَأَعْـــشَقُ قَوْلَـــهُ

وَلِلنَّـــاسِ فِيمَـــا يَعْـــشَقُونَ مَـــذَاهِبُ

وكانـت وفاتـه بمصر في شـهر ربيـع الأول سنـة ثلاث وثلاثين ـ رحمه الله ـ[1].

ومن شيوخه:

١ ـ الشيخ الإمام، العالم العلاّمـة، محمـد بن أحمـد المرداوي القاهري، فقيه الحنابلة، وشيخهم في عصره، توفي بمصر سنة ١٠٢٦[2].

٢ ـ الإمام العلاّمة، المفسّر المحدث، محمد بن محمد بن عبدالله الأكراوي، الشافعي، القلقشندي، المعروف بمحمد حجازي، ولد سنة (٩٥٧هـ) وتوفي سنة (١٠٣٥هـ)[3].

٣ ـ الشيخ الإمام، البارع الفَرَضي، يحيى بن موسى بن أحمد بن موسى الحجاوي، المقدسي الدمشقي، الصالحي القاهري[4].

٤ ـ العالم المحقق أحمد بن محمد بن علي الغُنيمي، الأنصاري

(١) إلى هنا انتهى كلام المؤرخ مصطفى بن فتح الله الحموي ـ رحمه الله تعالى ـ، في كتابه «فوائد الارتحال ونتائج السفر في أعيان القرن الحادي عشر».

(٢) النعت الأكمل (ص: ١٨٥)، السحب الوابلة: ٢/ ٨٨٥.

(٣) خلاصة الأثر: ٤/ ١٧٤.

(٤) النعت الأكمل (ص: ١٨٢)، السحب الوابلة: ٣/ ١١٩٩.

المصري الحنفي الخزرجي، توفي في رجب سنة (١٠٤٤هـ)[١].

ومن تلامذته:

١ ـ الشيخ الإمام، محمد بن موسى بن محمد الجمّازيّ، الحسين المالكي، توفي بمصر سنة (١٠٦٥هـ)[٢].

٢ ـ العالم العلاّمة، عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر بن إبراهيم، البعلي الحنبلي الأزهري الدمشقي، الشهير بابن فقيه فصّة، ولد في سنة (١٠٠٥هـ)، وتوفي سنة (١٠١٧هـ)[٣].

٣ ـ الشيخ الفاضل، أحمد بن يحيى بن يوسف بن أبي بكر، الكرمي المقدسي، أبو العباس، شهاب الدين، ولد سنة (١٠٠٠هـ)، وتوفي سنة (١٠٩١هـ)[٤].

* **مؤلفات المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ:**

تميز المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بتنوع مادته العلمية، من بين مصنفات في العقائد والفقه والتفسير، إلى الحديث وفنونه، واللغة وعلومها، مع الفرائض والمواعظ، والسيرة والتراجم والتواريخ، وغير ذلك من الفنون والعلوم، يدلي في كل ذلك بدلوه فيبدع ويتفنن، فقد كان

---

(١) خلاصة الأثر: ١/ ٣١٢، الأعلام للزركلي: (٢٣٧).

(٢) خلاصة الأثر: ٤/ ٢٣٤، الأعلام للزركلي: ٧/ ٣٤١.

(٣) النعت الأكمل (ص: ٢٢٣)، السحب الوابلة: ٢/ ٤٣٩.

(٤) النعت الأكمل (ص: ٢٤٩)، السحب الوابلة: ١/ ٢٢٧.

ـ رحمه الله ـ من المكثرين في التأليف، وهذا يدل على غزارة علمه، وكما قال الدكتور العثيمين ـ حفظه الله تعالى ـ، واصفاً كتبه بقوله: أغلب مؤلفاته سَلِمت من الضياع، وهو موجودٌ بنسخٍ متعددة.

وألطف من تتبع مصنفات الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي ـ رحمه الله تعالى ـ، الأستاذ نجم عبد الرحمن خلف في مقدمة تحقيقه لكتاب **«الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية»**، وكتاب **«الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية»**.

وأما الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الطريقي، فقد استوعب في كتابه الماتع المفيد **«معجم مصنفات الحنابلة»** كل ما ذُكر عن المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، من مطبوعٍ ومخطوط.

بالإضافة إلى البحث المنشور بمجلة البحوث الإسلامية، العدد (٥٢) من رجب إلى شوال سنة ١٤١٨هـ، بعنوان **«العلامة مرعي بن يوسف الحنبلي آثاره العلمية»** دراسة قدمها الدكتور عبدالله بن سليمان الغفيلي.

فشكر الله للجميع ما تفضلوا به من جهد، وجعله في ميزان حسناتهم يوم القيامة، اللهم آمين. مع بعض الزيادات البسيطة التي وجدتها خارج ما دوَّنوا.

١ ـ الآيات المحكمات والمتشابهات.

٢ ـ إتحاف ذوي الألباب في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، مخطوط مكتبة الأوقاف بالموصل فهرسها:

(٣/ ١٢٥٠)، في مدرسة الحاج حسين في الموصل برقم: (١٣٧) ضمن مجموع، ومكتبة الأزهر برقم: (١٧٧١/ ٤٣٠٣٦)، و(٣٣١٥ مجاميع ـ ١٠١٨٠)، ولها صورةٌ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم (٧٢٠) عن المكتبة الأزهرية.

٣ ـ **إحكام الأساس في قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾**، مطبوعٌ، وله نسخةٌ خطيةٌ بدار الكتب المصرية فهرسها: (٣/ ٢٧٠).

٤ ـ **إخلاص الوداد في صدق الميعاد**، مطبوعٌ بدار البشائر بيروت ١٤٢١هـ، بتحقيق: خالد بن العربي مدرك، مخطوط دار الكتب المصرية، مجموع رقم: (١٧٨١/ ف).

٥ ـ **الأدلة الوفية بتصويب قول الفقهاء والصوفية.**

٦ ـ **إرشاد ذوي الأفهام لنزول عيسى ـ عليه السلام ـ**، مطبوعٌ حققه الدكتور: عطية الزهراني، مخطوط مكتبة خدابخش الهند، فهرسها: (١/ ٢٩٠)، وله صورةٌ في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة برقم: (١٥٥١/ ف).

٧ ـ **إرشاد ذوي العرفان لما في العمر من الزيادة والنقصان**، مطبوعٌ بدار عمار الأردن، عام ١٤٠٨هـ في الأردن بتحقيق: مشهور حسن سلمان، وله نسخٌ خطيةٌ في برنستون ـ جاريت ـ برقم: (١٥٣١) في (٨) ورقات، ونسخةٌ في مدرسة الحاج حسين في الموصل برقم: (١٣٧) ضمن مجموع.

٨ ـ **إرشاد من كان قصده إعراب لا إله إلا الله وحده.**

٩ ـ أرواح الأشباح في الكلام على الأرواح.

١٠ ـ أزهار الفلاة في آية قصر الصلاة.

١١ ـ الأسئلة في مسائل مشكلة.

١٢ ـ أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، مطبوعٌ بمؤسسة الرسالة بيروت، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط، سنة ١٩٨٥م، وله نسخةٌ خطيةٌ في الظاهرية بدمشق رقم: (٦٣٢) ورقم: (١٧٣٨٢)، وفي جامعة الملك سعود برقم: (١٨٩٥) في (٦١) ورقة، وفي مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم: (١/ ١٣٨٤٦)، (١/ ١٧٦٣)، وقد حُقق في رسالة علمية في جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٤٠١هـ.

١٣ ـ إيقاف العارفين على حكم أوقاف السلاطين.

١٤ ـ بديع الإنشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات، ويعرف بإنشاء مرعي، وقد طبع الكتاب تسع طبعات، وله نسخٌ مخطوطةٌ في دار الكتب المصرية نسخ (١٠٥٨هـ) رقم: (٣٣)، وفي جامعة الإمام بالرياض برقم: (٧٩٦) في (٥٠) ورقة، وله فيها صورةٌ برقم: (١٠٤٧٥) في (٢٨) ورقة (١ ـ ٢٨) عن ليدن برقم (١٥٤٥)، وله صورةٌ في جامعة الملك سعود برقم: (٨٦٠/ ف في ٤٢) لوحة عن المكتبة الوطنية بتونس برقم: (٤٢٤٠)، وفي جامعة الملك سعود برقم: (٣٤٨٧) في (٤٢) ورقة بخط: حسن معوض سنة ١٢٣١هـ، وصورةٌ في جامعة الملك سعود برقم: (٨٢٣/ ف) في (٨٧) لوحة عن دار الكتب الوطنية بتونس برقم:

(٤٧٤٧)، وفي الظاهرية نسخٌ تحت رقم: (٥٧٢٣)، ورقم: (٩٦٥٦)، ورقم: (٦٥٥٦)، ورقم: (٦٢٠٨)، ورقم: (٥٥٢١).

١٥ ـ **البرهان في تفسير القرآن**، لم يتمه.

١٦ ـ **بشرى ذوي الإحسان لمن يقضي حوائج الإخوان**.

١٧ ـ **بشرى من استبصر وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر**.

١٨ ـ **بلغة الحافظ وبلاغة اللافظ**، مخطوطٌ بالظاهرية رقم: (٧٣٤٨).

١٩ ـ **بهجة الناظرين في آيات المستدلين**، مطبوعٌ وله عددٌ من النسخ الخطية، منها في جامعة الملك سعود برقم: (٤٢) في (١٧٧) ورقة ناقصة الآخر، وفي المكتبة الوطنية بتونس برقم: (٤٣٨٥) في (٢٥٠) لوحة، ولها صورةٌ في جامعة الملك سعود برقم: (٧٧٧/ ف)، وفي مكتبة شستربيتي برقم: (٣٧٢١) في (٢٢٤) لوحة، ولها صورةٌ في جامعة الإمام بالرياض تاريخ نسخها ٢٣ رمضان سنة ١١٧٧هـ، وفي جامعة أم القرى نسخة برقم: (١١٧٧) نسخت عام ١١٥٣هـ، وفي مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، وصورتها في الجامعة الإسلامية برقم: (٣٠٨٠) في (٢٦٢) لوحة، وأخرى برقم: (٧٢٩٤) في (١٨٦) ورقة بنفس الجامعة الإسلامية، وقد حُقق في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في رسالة دكتوراه عام ١٤١٢هـ في العقيدة.

٢٠ ـ **تحسين الطرف والوجوه في قوله عليه السلام: «اطلبوا الخير عندَ حِسان الوجوه»**، مطبوعٌ بدار البشائر بيروت سنة ١٤٢٩هـ، بتحقيق:

راشـد بن عامـر الغفيلي، ولـه نسخـة بمكتبـة الظاهرية بدمشق برقم: (٥٠٤٤).

٢١ ـ **تحقيق البرهان في إثبات حقيقة الميزان**، مطبوعٌ، بمطبعة المدني سنة ١٤٠٩هـ، تحقيق: سليمان الخزي، مخطوط باريس رقم: (٢٠٢٦)، ومكتبة باتنا بالهند رقم: (٤٢٨).

٢٢ ـ **تحقيق البرهـان في شأن الدخان الذي يشربه الناس الآن**، مطبوعٌ بدار ابن حزم بيروت سنة ٢٠٠٠م وله نسخةٌ خطيةٌ في مكتبة ليدن برقم: (٦٢٧٥) لها صورةٌ في جامعة الإمام بالرياض برقم: (١٠٦٣٥) (٤٩ ـ ٥٦) نسخت عام ١٢٢٧هـ، ونسخة جوتا المانيا رقم: (٢١٠٢).

٢٣ ـ **تحقيق الخلاف في أصحاب الأعراف**، مطبوعٌ بدار الصحابة بتحقيق: مشهور حسن، مخطوط في الظاهرية بدمشق برقم: (٥٨)، وفي جامعة برنستون برقم: (١٥٣١)، وفي باتنا برقم: (٢/ ٢٤٨).

٢٤ ـ **تحقيق الرجحـان بصوم يوم الشـك من رمضان**، مطبـوعٌ بتحقيق: الدكتور عبد الكريم العمري بمطابع ابن تيمية بالقاهرة.

٢٥ ـ **تحقيق الظنون بأخبار الطاعون**، مخطوط جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض، ضمن مجمـوع برقم: (١٦٥٠) حديث (٢٧ ـ ٧٥) نسخ عام ١٠٦٦هـ، ونسخة بريل رقم: (٦٣١٣)، وباريس رقم: (٢٠٢٦).

٢٦ ـ **تحقيق المقالة هل الأفضل في حق النبي ﷺ الولاية أو النبوة أو الرسالة**.

٢٧ ـ **تسكين الأشواق بأخبار العشاق.**

٢٨ ـ **تشويق الأنام في حج بيت الله الحرام**، مطبوعٌ، وله نسخةٌ خطيةٌ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض برقم: (٩٠١٨/ خ) في (٤١) ورقة، وصورةٌ في جامعة أم القرى بمكة المكرمة برقم: (٢٣٨) عن مكتبة جامعة برنستون برقم: (٣٢٩٦).

٢٩ ـ **تلخيص أوصاف المصطفى ﷺ وذكر من بعده من الخلفا**، مطبوعٌ، وله نسخٌ خطيةٌ في جامعة الملك سعود برقم: (٧٩) في (٤١) ورقة بخط محمد يعقوب المقدسي الحنبلي سنة ١١٤٤هـ، ونسخةٌ في مكتبة الحرم المكي في (٢٤) ورقة برقم: (٢٦٢٦)، ونسخةٌ في مكتبة شهيد علي باشا باستنبول برقم: (١٨٦١).

٣٠ ـ **تنبيه الماهر على غير ما هو متبادر**، أي الأحاديث الواردة في الصفات.

٣١ ـ **تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين**، مطبوعٌ بدار ابن حزم بيروت سنة ١٤١٩هـ، تحقيق: عبدالله محمد الكندري، ولها نسخٌ خطيةٌ كثيرة، منها نسخة شستربيتي في (٩٢) ورقة برقم: (٤٣٢٤) نسخ ١٠٢٣هـ، ونسخة دار الكتب المصرية نسخ ١١٧٠هـ رقم: (٢١٢٠)، وجامعة برنستون برقم: (١٨٤٨) في (١٢٨) ورقة نسخ ١١٩٢هـ، جامعة الملك سعود في (٧٥) ورقة نسخ ١١٩٤هـ، ونسخة المكتبة الوطنية بتونس رقم: (١٨٥٥١).

٣٢ ـ **توضيح البرهان في الفرق بين الإسلام والإيمان**، مطبوعٌ،

وله نسخٌ خطيةٌ في التيمورية بالقاهرة برقم: (٣٩٧)، وفي مكتبة سليم آغا بتركيا برقم: (٦٥٧)، ونسخةٌ في دار الكتب الظاهرية بدمشق ضمن مجموع رقم: (١٨٩٠) في (٦) ورقات (١٣٨ ـ ١٤٤).

٣٣ ـ **توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين**، مطبوعٌ وله نسخٌ خطيةٌ في مكتبة خدابخش فهرسها: (١/ ٢٩٠)، وله صورةٌ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم: (١٥٣٦/ ف)، ونسخة باتنا الهند رقم: (٤٢٨).

٣٤ ـ **تهذيب الكلام في حكم أرض مصر والشام**.

٣٥ ـ **جامع الدعاء وورد الأولياء ومناجاة الأصفياء**، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم: (١٥٤٢).

٣٦ ـ **الحجج البينة في إبطال اليمين مع البينة**.

٣٧ ـ **الحكم الملكية والكلم الأزهرية**، مخطوط باريس رقم: (٢٠٢٦).

٣٨ ـ **دفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل العاصي بالقدر**، مطبوعٌ تحقيق: عبدالله بن سليمان الغفيلي، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس بعنوان «رفع الشبه والغرر» مجموع رقم (٧٨٦٥) (١ ـ ٣٢).

٣٩ ـ **دليل الحكام في الوصول إلى دار السلام**.

٤٠ ـ **دليل الطالب لنيل المطالب في الفقه**، مطبوعٌ عدة طبعات، ونسخه معروفةٌ مشتهرة.

٤١ ـ **دليل الطالبين لكلام النحويين**، مطبوعٌ بوزارة الأوقاف بدولة

الكويت ١٤٣٠هـ، وله نسخٌ خطية منها نسخة وزارة الأوقاف بالكويت في (٣٦) ورقة برقم: (١٩٠/ ٢)، وجامعة الملك سعود في (٢٧) ورقة برقم: (٦٥٥٣)، والظاهرية في (٢٨) ورقة برقم: (٩٣٣١)، وفي جامعة السليمانية بالعراق في فهرسها: (ص ٧١ رقم ١٨٦).

٤٢ ـ رسالة في أصول الفقه وشرحها، مخطوطٌ بمكتبة ليدن ـ هولندا برقم: (٦٢٧٥).

٤٣ ـ رسالة فيما وقع في كلام الصوفيين من ألفظ موهمة للتكفير، له نسخة خطيةٌ بالقاهرة، فهرس الكتبخانه: (٧/ ٥٤٦).

٤٤ ـ رفع التلبيس عمن توقف فيما كفر به إبليس، مخطوطٌ له نسخةٌ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في (٦) ورقات برقم: (٣٥٣)، وفي دار الكتب المصرية فهرسها: (١/ ٢٩٣) برقم: (٢١٦) مجاميع.

٤٥ ـ رواشق السهام، مخطوطٌ بدار الكتب المصرية ـ مخطوطات زكية، برقم: (٢٧٣).

٤٦ ـ روض العارفين وتسليك المريدين.

٤٧ ـ الروض النضر في الكلام على الخضر، مخطوطٌ في مكتبة خدابخش فهرسها: (١/ ٢٦٠٢)، وله صورةٌ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم: (١٥٥١/ ف).

٤٨ ـ رياض الأزهار في حكم السماع والأوتار والغناء والأشعار، مخطوطٌ في مكتبة خدابخش فهرسها: (١/ ٢٩٠) برقم: (٢٦٠٢)، وله

صورةٌ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم: (١٥٥١/ ف)، وعنها صورةٌ في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض برقم: (١١٣٤٥/ ف/ ١).

٤٩ ـ **السراج المنير في استعمال الذهب والحرير.**

٥٠ ـ **سلوان المصاب بفرقة الأحباب**، مطبوعٌ بدار الحرمين بالقاهرة، سنة ١٤٢٠هـ، تحقيق: إبراهيم إسماعيل القاضي، والسيد عزت المرسي.

٥١ ـ **سلوك الطريقة في الجمع بين كلام الشريعة والحقيقة.**

٥٢ ـ **شفاء الصدور في زيارة المشاهد والقبور**، مطبوعٌ وقد حُقق في رسالةٍ علميةٍ في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وطُبع عن رئاسة البحوث العلمية في المملكة العربية السعودية، وهو مخطوط الظاهرية بدمشق برقم: (٨٣٤٩).

٥٣ ـ **الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية**، مطبوعٌ بدار الفرقان عمان، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٤هـ، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف، وله نسختن خطيتين في لابدبيرج الأولى في (٢١) ورقة نسخ ١٠٣٠هـ، والثانية في (٢١) ورقة نسخ ١١٥٧هـ، وثالثة في المكتبة الوطنية بتونس مجموع (٧٨٦٥).

٥٤ ـ **غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى**، مطبوعٌ عدة طبعاتٍ آخرها طبعة وزارة الأوقاف بدولة الكويت سنة ١٤٢٧هـ، تحقيق: ياسر إبراهيم المزروعي ورائد يوسف الرومي، ونسخه معروفةٌ مشتهرة.

٥٥ ـ غذاء الأرواح في المحادثة والمزاح، مطبوعٌ، وله نسخةٌ خطية بدار الكتب المصرية ـ تيمور، برقم: (٦٦٦).

٥٦ ـ الغزل المطلوب في المحب والمحبوب، ديوان شعره، مخطوط جامعة الملك سعود ضمن مجموع (١ ـ ٣١) نسخ ١٢٨٧هـ برقم: (٣٢٢/ ١/ م).

٥٧ ـ فتح المنان بتفسير آية الامتنان.

٥٨ ـ فرائد فوائد الفكر في الإمام المهدي المنتظر، مخطوط دار الكتب المصرية فهرسها: (١/ ٣٣٧)، وفهرس الكتبخانه: (٦/ ١٦١)، ونسخة باريس رقم: (٢٠٢٦).

٥٩ ـ فم الوكاء في كلام سفيان من ألفاظ المهملات في التكفير.

٦٠ ـ الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة، مطبوعٌ بالدار العربية للنشر والتوزيع سنة ١٩٧٧م تحقيق: محمد الصباغ، وله نسخ خطية في جامعة الملك سعود برقم: (٧١٠) في (١٥) ورقة، وفي الظاهرية برقم: (٤٠٢٤) (١ ـ ٧).

٦١ ـ قرة عين الودود في المقصور والممدود.

٦٢ ـ قلائد العقيان في فضائل سلاطين آل عثمان، مطبوعٌ بدار غراس الكويت، ٢٠٠٤م بتحقيق: عبدالله محمد الكندري.

٦٣ ـ قلائد العقيان في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾، مطبوعٌ.

٦٤ ـ قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن، مطبوعٌ بدار

القرآن الكريم بالكويت سنة ١٩٨٠م بتحقيق: سامي عطا حسن، وله عددٌ من النسخ في الظاهرية برقم: (٥٨) في (٥٩) ورقة، صورتها في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، برقم: (٣١٨) تفسير وعلوم قرآن، وأخرى في دار الكتب المصرية برقم: (٢٣٠٥١ب)، ولها صورةٌ في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة برقم: (٧٧٥) في (٤٥)، ونسخةٌ في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض برقم: (٣٢٣٠) في (٣٥) ورقة ضمن مجموع (١ ـ ٣٥) نسخ ١٣٤٩هـ، وقد حُقق الكتاب في جامعة الإمام بالرياض ـ كلية أصول الدين ـ عام ١٤٠٤هـ.

٦٥ ـ **القول البديع في علم البديع**، مطبوعٌ بدار كنوز أشبيلية سنة ٢٠٠٤م، مخطوط مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم: (١٣٧) بلاغة، وله صورةٌ في جامعة الملك سعود بالرياض برقم: (٥١٤/ ف).

٦٦ ـ **القول المعروف في فضائل المعروف**، مطبوعٌ بدار البشائر بيروت ١٤٢١هـ، بتحقيق: محمد أبو بكر عبدالله باذيب، مخطوط بمكتبة خاصة للشيخ عوض بن معروف باذيب بشبام حضرموت اليمن.

٦٧ ـ **الكلمات البينات «السنيات» في قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾**، مطبوعٌ بدار البشائر بيروت سنة ١٤٢٤هـ، بتحقيق: محمد خير رمضان يوسف، وله نسخ خطية برلين برقم: (٤٩٦)، ودار الكتب المصرية برقم: (٧/ ٢٨)، وأخرى برقم: (١/ ٥٩)،

ودار الكتب الظاهرية ضمن مجموع رقم: (١٨٩٠) في (١٤) ورقة (١٤٥ ـ ١٥٨).

٦٨ ـ **«الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية»**، مطبوعٌ بدار الغرب الإسلامي سنة ١٩٨٨م، بتحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، وله نسخة خطية في لانديبرج برقم ٢٤٣، بخط المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، في (٥٠) ورقة، وبريل برقم: (١٠١٢٨).

٦٩ ـ **لطائف المعارف**.

٧٠ ـ **اللفظ الموطا في بيان الصلاة الوسطى**، مطبوعٌ بدار البخاري ـ بريدة ـ المدينة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، تحقيق: الدكتور عبد العزيز ابن مبروك الأحمدي، وطبعةٌ ثانية بكلية الشريعة ـ وحدة البحوث الشرعية ـ جامعة الكويت، بتحقيق: هناء عبدالله المطوع، سنة ٢٠٠٨م، وله نسخةٌ خطيةٌ في الظاهرية برقم: (٧٣، ٣٨)، وفي دار الكتب المصرية التيمورية برقم: (٣٩٥).

٧١ ـ **ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون**، مطبوعٌ بدار البشائر بيروت ١٤٢١هـ، بتحقيق: خالد بن العربي مدرك، مخطوط دار الكتب المصرية، مجموع رقم: (١٧٨١/ ف).

٧٢ ـ **محرك سواكن الغرام إلى حج بيت الله الحرام**، مطبوعٌ، وله نسخٌ خطيةٌ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض برقم: (٢٥٧٢/ خ)، وفي جامعة الملك سعود برقم: (١١٦/ ٢/ ف) في (٢٥) لوحة.

٧٣ ـ **المختصر في علم الصرف**، مخطوط بمكتبة طوب كابي سراي باستنبول برقم: (١٨٠)، ونسخة جامعة الملك سعود بالرياض.

٧٤ ـ **مرآة الفكر في المهدي المنتظر**.

٧٥ ـ **المسائل الست الكرام**، مطبوعٌ بدار البشائر بيروت سنة ١٤٣٠هـ، تحقيق: نظام بن محمد يعقوبي، وله نسخةٌ خطيةٌ بالمكتبة البريطانية برقم: (OR ١٢٧٧٧).

٧٦ ـ **المسائل اللطيفة في فسخ الحج إلى العمرة الشريفة**.

٧٧ ـ **مسبوك الذهب في فضل العرب، وشرف العلم على شرف النسب**، مطبوعٌ بدار عمار الأردن سنة ١٤٠٨هـ، بتحقيق: علي حسن علي عبد الحميد، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس مجموع (٧٨٦٥).

٧٨ ـ **المسرة والبشارة في فضل السلطنة والوزارة**، مطبوعٌ بمركز زايد للتراث في أبو ظبي، بتحقيق: محمد عبد القادر خريسان سنة ٢٠٠٢م، وله نسخةٌ خطيةٌ بمكتبة الكونجرس بواشنطن رقم: (٦٥).

٧٩ ـ **مقدمة الخائض في علم الفرائض**.

٨٠ ـ **منية المحبين وبغية العاشقين**، مخطوط مكتبة الإسكندرية برقم: (٤٥٦٤).

٨١ ـ **النادرة الغريبة والواقعة العجيبة**، مضمونها الشكوى من الميموني معاصره، والحطّ عليه.

٨٢ ـ **نزهة المتفكر**.

٨٣ ـ **نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين**،

وهو هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ.

٨٤ ـ نزهة الناظرين في فضائل الغزاة والمجاهدين.

٨٥ ـ نزهة نفوس الأخبار ومطلع مشارق الأنوار، مخطوط بالأزهرية برقم: (٢٤١٩).

٨٦ ـ نصحية، مخطوط، يوجد نسخة منه في برلين برقم: (٥٤١٥).

مصادر ترجمة المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ، نفحة الريحانة للمحبي: (٢/ ٢٤٤)، خلاصة الأثر للمحبي: (٤/ ٣٥٨)، النعت الأكمل (ص: ١٨٩)، عنوان المجد: (١/ ٣١)، السحب الوابلة: (٣/ ١١١٨)، الأعلام للزركلي: (٧/ ٢٠٣) معجم المؤلفين: (٣/ ٨٤٢)، معجم مصنفات الحنابلة: (٥/ ١٧٩).

❑ ❑ ❑

المُصنّف رحمه الله تعالى في دواوين المؤرّخين

أحد أكابر علماء الحنابلة بمصر، كان إماماً محدثاً فقيهاً، ذا اطلاع واسع، على نُقول الفقه، ودقائق الحديث، ومعرفة تامة بالعلوم المتداولة.

خلاصة الأثر، للمحبي ـ رحمه الله تعالى ـ.

شيخ مشايخ الإسلام، أَوحد العلماء المحققين الأعلام، واحد عصره وأوانه، ووحيد دهره وزمانه، صاحب التآليف العديدة، والفوائد الفريدة، والتحريرات المفيدة، خاتمة أعيان المتأخرين، من سمت بعلومه سماء المفاخر، وطلع به فجر فخر الفاخرين، فهو العلامة بالتحقيق، والفهامة عند التدقيق والتنميق.

النعت الأكمل، للغزي ـ رحمه الله تعالى ـ.

كانت له اليد الطولى في معرفة الفقه وغيره، صنف مصنفاتٍ عديدة، في فنونٍ من العلوم.

عنوان المجد، لابن بشر ـ رحمه الله تعالى ـ.

شيخ الإسلام، أوحد علماء الأعلام، فريد عصره وزمانه، ووحيد دهره وأوانـه، صاحب التآليف العديدة، والتحريرات المفيدة، العلامة بالتحقيق، والفهامة بالتدقيق، شرفت به البلاد المقدسة. . . وكان فرداً من أفراد العالـم علماً وفضلاً واطلاعاً.

مختصر طبقات الحنابلة، للشطي ـ رحمه الله تعالى ـ.

❑ ❑ ❑

نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين

تأليف

العلامة مرعي الكرمي الحنبلي

مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي المصري الحنبلي

المولود في طوركرم بفلسطين والمتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣٣ هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق

عبد الله محمد الكندري

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي بن يوسف الحنبلي المقدسي، ـ لطف الله تعالى به آمين ـ: الحمدُ لله الباقي وكُلُّ من عليها فان، الدائمُ سلطانه بعد كل سلطان، الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان، والصلاة والسلام على مالك أزمة الخلافة والمجد بأرفع عنان، وعلى آله وأصحابه وخلفائه أولي الزهد والتاريخ والعرفان.

وبعد،

فالنفوس لم تزل تتشوق لأخبار الماضين، وتتشوف لأحوال الخلفاء والسَّلاطين، ففي آثارهم عبرةٌ للمعتبرين، وموعظةً للمتَّعظين، ومطالعة تواريخهم تزيد الشهامة والعقل، وتورث النباهة والفضل.

والناظر في التاريخ يعرف طبقات سوالف [الدهور]، وأمم خوالي العصور، ويصير على بصيرة في معرفة السابق واللاَّحق، وذلك مرتبة [نفيسة] عند الذكي الحاذق.

قال سفيان الثوري(1): لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا

(١) قال الذهبي: سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب أبو عبدالله الثوري الكوفي =

لهـم التـاريـخ.

وقال حماد بن زيد[1]: لم يُستعن على الكذابين بمثل التاريخ.

وقـد أحببت أن أذكـر هنا ـ على سبيل التلخيص ـ تاريخ من وَلِيَ مصر من الخلفاء والسلاطين، جعلتها نبـذة مغنيةً في المذاكرة، ونزهة مقنعةً في المحاضرة، ولمعةً تلذُّ بها المسامرة، وتاريخاً مختصراً، وجامعاً سديداً معتبراً.

وسميته: «نزهـة الناظرين في تاريخ من ولي مصـر من الخلفـاء والسلاطين»، وكأني بمن يأتي بعـدي، فيضع لـه تاريخـاً على نمطـه، ويستريح من تعب [القلب] وشَطَطه، غايتـه أن يزيد الزوائـد، لترغيب الرائد، وينسى قول القائلين، والمثل السائر.

شعر:

لــو قبــل مبكاهــا بَكيْــتُ صــبابةً

إذاً لــشفيْتُ الــنفسَ قبــلَ التنــدُّمِ

= المجتهد، شيخ الإسلام، إمام الحفـاظ، سيد العلماء العاملين في زمانـه، روى لـه الجماعـة، سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٢٩ (٨٢)، تهذيب الكمال: ١١/ ١٥٤ (٢٤٠٧).

(١) قال الذهبي: حماد بن زيد بن درهم أبو إسماعيل الأزدي مولاهم البصري، العلامة الحافظ الثبت، أحد الأعلام، روى له الجماعة، سير أعلام النبلاء: ٧/ ٤٥٦ (١٦٩)، تهذيب الكمال: ٧/ ٢٣٩ (١٤٨١).

ولكــنْ بكــتْ قبلــي فهــيجَ لــيَ البُكــا

بكاهـــا فقلْـــتُ الفـــضلُ للمتقـــدِّمِ

فأقول ولا معين لي سواه، ولا أعتمد إلا إياه.

❐ ❐ ❐

مُقَدِّمَة

التاريخ سُنَّةٌ ماضيةٌ، وطريقةٌ راضيةٌ، أمر بها رسول الله ﷺ، حين كتب [الكتاب] لنصارى نجران، فأمر علياً أن يكتب فيه: أنه كُتب لخمس من الهجرة.

وعن ابن شهاب[1]: التاريخ من يوم قدم النبي ﷺ مهاجراً.

وقيل: أول من كتب التاريخ في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لسنتين ونصف من خلافته، كتب إليه أبو موسى الأشعري[2]: أنه يأتينا من قِبلك كتبٌ ليس لها تاريخ، فاستشارهم في التاريخ، فأجمعوا على الهجرة، بعد أن اختلفوا في جعل مبدئه؛ هل هو مولد النبي ﷺ،

---

(١) قال الذهبي: محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام، الإمام العلم، حافظ زمانه، روى له الجماعة، سير أعلام النبلاء: ٥/ ٣٢٦ (١٦٠)، تهذيب الكمال: ٢٦/ ٤١٩ (٥٦٠٦).

(٢) الصحابي الجليل، عبدالله بن قيس بن سُليم بن حَضّار، أبو موسى الأشعري، روى له الجماعة، تهذيب الكمال: ١٥/ ٤٤٦ (٣٤٩١)، الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ٢١١ (٤٩٠١).

أو مبعثه أو هجرته.

ثم قالوا: بأي [شهر] نبدأ فنصيِّره أول السنة؟ فقال بعضهم: رجب، وبعضهم: رمضان، وبعضهم: الحجة، وبعضهم: الشهر الذي خرج فيه من مكة، وبعضهم: الشهر الذي قدم فيه المدينة.

وقال عثمان: أرِّخوا من المحرم أول السنة، وهو شهر حرام، وأول الشهور في العدة، ومنصرف الناس عن الحج، فأجمعوا على ذلك.

وذكر ابن عساكر وغيره: أنه لم يزل للناس تاريخ، كانوا يؤرخون في الدهر الأول من هبوط آدم من الجنة، فلم يزل ذلك حتى بعث الله نوحاً، فأرَّخوا من الطوفان، ثم لم يزل كذلك حتى حُرّق إبراهيم، فأرَّخوا من تحريق إبراهيم ثم اختلفوا.

فأرَّخ بنو إسحاق من نار إبراهيم إلى مبعث يوسف، ومن مبعث يوسف إلى مُلك سليمان، ومن مُلك سليمان إلى مَبعث عيسى، ومن مَبعث عيسى إلى مبعث سيدنا رسول الله ﷺ، وأرَّخ بنو إسماعيل من بنيان الكعبة إلى موت كعب بن لؤي، ومن موت كعب بن لؤي إلى عام الفيل، فأرَّخوا منه.

وكانت النصارى تؤرخ بعهد إسكندر ذي القرنين، وكان الفرس يؤرخون بملوكهم.

ثم أرَّخ المسلمون بعد ذلك من الهجرة.

ولنشرع في المراد فنقول: لا بأس بذكر فائدةٍ لطيفةٍ وهي أنه قيل:

عاش آدم ألف سنة، وبين موته والطوفان ألف سنة ومائتان واثنان وأربعون سنة، وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة سنة وخمسين سنة، وبين إبراهيم وموسى سبع مئة سنة، وبين موسى وداود خمس مئة سنة، وبين داود وعيسى ألف سنة ومائتا سنة، وقيل غير ذلك، ولا يعلم تحقيق ذلك إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، ولا بأس بذكر الخلفاء كلهم على وجه مختصر؛ لتتم الفائدة على الوجه المعتبر.

❐ ❐ ❐

سيد الخلفاء وخاتم الرسل محمد ﷺ

وُلد بمكة في شِعب بني هاشم، يوم الإثنين بلا خلاف، للثاني عشر من ربيع الأول، على الأصح، لعشرين من شهر نيسان، عام الفيل، بعد قدومه مكة بخمسين يوماً، على الأشهر، في ولاية الملك العادل كسرى أنوشروان، سنة ثمان وسبعين وخمس مئة، من رفع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى السماء.

ولما تمَّ له خمس وعشرون سنةً تزوج خديجة، ولما تمَّ له أربعون سنةً بعثه الله، ولما تمَّ له إحدى وخمسون سنةً وتسعة أشهر أُسري به إلى السماء، ولما تمَّ له ثلاث وخمسون سنةً هاجر إلى المدينة.

وكان أول المحرم سنة الهجرة يوم الخميس، الثامن من [أيار] سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة من ذي القرنين، وأقام بالمدينة عشر سنين.

وتوفي ﷺ يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من الهجرة، وعمره ثلاث وستون سنةً.

❑ ❑ ❑

دولة الخلفاء الراشدين
رضوان الله عليهم أجمعين

أبو بكر الصديق، عبدالله ابن أبي قحافة عثمان: بُويع بالخلافة سنة إحدى عشرة من الهجرة، فأقام سنتين وثلاثة أشهر وتسعة أيام، وتُوفي وعمره ثلاث وستون سنةً.

الفاروق، عمر بن الخطاب أمير المؤمنين: بُويع يوم موت الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فأقام عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال، وتُوفي ثالث عشر ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين، وعمره ثلاث وستون سنةً.

ذو النورين، عثمان: بُويع أول المحرم، فأقام اثنتي عشرة سنة إلا أياماً، وتُوفي بشوال، سنة خمس وثلاثين، وعمره ثلاث وستون سنةً، والأَشهرَ اثنتان وثمانون سنة.

المرتضى، علي بن أبي طالب: بُويع بعد وفاة عثمان، فأقام أربع سنين وتسعة أشهر، وقُتل ليلة الجمعة، سابع عشر رمضان، سنة أربعين، وعمره ثلاث وستون سنةً.

الحسن ولده: بُويع يوم مات أبوه، فأقام ستة أشهر، ثم خلع نفسه

طائعاً، في ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين، ومات سنة ست وخمسين، وعمره سبع وأربعون سنةً، وفي الحديث «الخِلافةُ بَعْدِي ثلاثون سَنَةً، ثم تكون مُلْكاً عَضُوداً»[1]، وكان آخر ولاية الحسن رضي الله عنه تمام الثلاثين.

❐ ❐ ❐

(١) رواه مسلم (٧٤٧٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٤٣).

[الدولة الأموية]

ثم جاءت الدولة الأموية:

وكانت بالشام، وعدة الخلفاء منهم أربعة عشر، وكانت عُمّالهم بمصر والشام والحجاز، والهند والصين وخراسان، والمشرق والمغرب والأندلس، وسائر أقطار الإسلام، ومدتهم اثنتان وتسعون سنة.

فأولهم معاوية بن أبي سفيان: بُويع في ذي الحجة، ببيت المقدس، سنة أربعين، فأقام تسع عشرة سنةً وثلاثة أشهر، وتُوفي برجب، سنة ستين، ودُفن بدمشق، وعمره ثمان وسبعون سنةً.

يزيد ابنه: بُويع يوم مات أبوه، فأقام ثلاث سنين وتسعة أشهر، وتُوفي رابع عشر ربيع الأول، سنة أربع وستين، وعمره تسعٌ وثلاثون، ودُفن بدمشق.

معاوية ابنه: بُويع يوم مات أبوه، فأقام أربعين يوماً، وتُوفي خامس ربيع الآخر، سنة أربع وستين، وعمره ثلاث وعشرون سنةً، وكان رجلاً صالحاً.

عبدالله بن الزبير: بُويع بمكة، تاسع رجب سنة أربع وستين، فأقام

تسع سنين إلا قليـلاً، وقتله الحجاج، ثالث عشر جمادى الآخرة، سنة ثلاث وسبعين.

مروان بن الحكم: بُويع بالشام، في رجب سنة [أربـع] وستين، فأقام عشرة أشهـر، وتُوفي في رمضان سنة خمس وستين، وكان مُلكه بالشام ومصر، ولم تصح خلافته.

عبد الملك ابنه: بُويع يوم موته، فأقام إحدى وعشرين سنةً ونصف شهر، منها سبع سنين وسبعة أشهر مُتغلباً على ابن الزبير، وباقيها بعـد قتله، ومن حينئذٍ صحَّت خلافته، وتُوفي سنة ست وثمانين، وعمره ستون سنةً.

الوليد بن عبد الملك: بُويع يوم موتـه، فأقام تسع سنين، وتُوفي بجمادى الآخرة، سنة ست وتسعين، وعمره ثمان وأربعون سنةً، ودُفن بدمشق، وكثر الفتوح في أيامه.

سليمان أخوه: بُويع يوم موته، فأقام سنتين[1] وثمانية أشهر، وتُوفي في صفر، سنة تسع وتسعين، وعمره خمس وأربعون سنةً.

عمر بن عبد العزيز ﷺ: بُويع يوم موتـه، فأقام سنتين وخمسة أشهر، وتُوفي في رجب سنة إحدى ومئـة، وعمره تسع وثلاثون سنةً، ودُفن بدير سمعان[2]، بأرض حمص.

---

(١) والصواب أنها أربع سنين، كما جاء ذلك في كل كتب المؤرخين، ولعلّ ذلك سبق قلم للمصنف رحمه الله تعالى.

(٢) قال ياقوت الحموي: دير سمعان، دير بنواحي دمشق، في موضع نزه وبساتين، =

يزيد بن عبد الملك بن مروان: بُويـع يوم موت عمر، فأقام أربع سنين وشهراً، وتُوفي بحران[1]، في شعبان، سنة خمس ومئة، وعمره تسع وعشرون سنةً.

هشام أخـوه: بُويع يوم موتـه، فأقـام تسـع عشـرة سنـةً، وتُوفي بالرّصافة[2]، في ربيع الآخرة، سنة خمس وعشرين ومئة، وعمره ثلاث وخمسون سنةً.

الوليد بن يزيد بن عبد الملك: بُويع يوم موت عمّه هشام، فأقام سنةً وشهرين وعشرين يوماً، وقُتل لفسقه في جمادى الأول، سنة ست وعشرين ومئة.

يزيد بن الوليد بن عبد الملك: بُويع يوم قتل ابن عمّه الوليد، فأقام خمسة أشهر، وتُوفي سنة ست وعشرين ومئة، وعمره أربعون سنة.

إبراهيم أخوه: بُويع يوم موته، في شهر ذي الحجة، فأقام سبعين يوماً، وخَلَع نفسه في شهر صفر، سنة سبع وعشرين ومئة.

مروان بن محمد بن مروان الأول: بُويع يوم خلع إبراهيم، فأقام

= معجم البلدان: ٢/ ٥٨٥ (٥٠٧٤).

(١) قال ياقوت الحموي: حران، مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، وهي على طريق الموصل والشام والروم، معجم البلدان: ٢/ ٢٧١ (٣٥٨٦).

(٢) جاء في الحاشية بخط الناسخ «الرصافة جامع بمدينة بغداد. انتهى». وقال ياقوت الحموي: رصافة الشام، بناها هشام بن عبد الملك على طرف البرية، وكان يسكنها بالصيف، معجم البلدان: ٣/ ٥٤ (٥٥٠٥).

خمس سنين وشهراً، وقُتل في ذي الحجـة، عام اثنين وثلاثين ومئـة، وهو آخر خلفاء بني أمية.

يُقال أنه كان عرض جيشه، فبلغ أربع مئة ألف، غارقين في العُدد، فقال لوزيره: لا أظن أن جيشاً في الدنيا يغلب جيشنا هذا، فقال الوزير: يا أمير المؤمنين إذا جاءت المدة، لم تنفع العُدة، وإذا جاء المـدد، لم تنفع العُدد.

❑ ❑ ❑

[الدولة العباسية]

ثم جاءت الدولة العباسية:

وكانوا بالعراق، وعدَّتهم بها سبعة وثلاثون خليفة، ثم انتقلوا إلى مصر، وعدَّتهم بها نحو سبعة عشر خليفة، وفي صدر ولايتهم إلى المتوكل على الله، كانت أعمالهم سائر بلاد الإسلام غير الأندلس؛ فإنها خرجت عنهم بتغلُّب بني أمية عليها.

واستمرت الخلافة فيهم نحو ثمان مئة سنةً، وكان يُظن بقاؤها فيهم إلى أن يُسلموها للمهدي آخر الزمان، وهم الذين أحدثوا الألقاب للخلفاء، وقيل كانت الألقاب أيضاً لبني أمية، وإن سُلِّم ذلك فلا شهرة لهم بها.

فأول خلفاء العباسيين: السفاح أبو العباس عبدالله[1] بن محمد بن علي ابن ترجمان القرآن عبدالله بن عباس، عم رسول الله ﷺ، بُويع بالخلافة رابع عشر ربيع الأول، عام اثنين وثلاثين ومئة، فأقام أربع سنين وثمانية أشهر، وتُوفي سنة ست وثلاثين ومئة.

---

(١) في النسخ الثلاث «عبيدالله»، والصواب أنه عبدالله كما هو ثابت في كل كُتب التواريخ.

المنصور أبو جعفر عبدالله أخوه: بُويع يوم موته، فأقام اثنتين وعشرين سنةً، وتُوفي مُحرماً قرب مكة، في ذي الحجة، سنة ثمان وخمسين ومئة، وهو الذي بنى بغداد. انتهى.

المهدي محمد ولد المنصور: بُويع يوم موته، فأقام عشر سنين وشهراً، وتُوفي في المحرم، سنة تسع وستين ومئة.

الهادي موسى ولد المهدي: بُويع يوم موته، فأقام سنةً وشهر ونصف، ومات في ربيع الأول، سنة سبعين ومئة.

الرشيد هارون أخوه: بُويع يوم موته، فأقام ثلاثاً وعشرين سنةً، وتُوفي بجمادى الأولى، سنة ثلاث وتسعين ومئة، وعمره خمس وأربعون سنةً.

الأمين محمد ولد هارون: بُويع يوم موته، فأقام أربع سنين وسبعة أشهر، وخُلع ثم قُتل في المحرم، سنة ثمان وتسعين ومئة، وعمره تسع وعشرون سنةً.

المأمون عبدالله أخوه: بُويع يوم قتله، فأقام عشرين سنةً وخمسة أشهر، ومات بأرض الروم، في رجب سنة ثماني عشرة ومئتين، وعمره ثمان وأربعون سنةً، وهو أول من أظهر القول بخلق القرآن، وتبعه المعتصم، والواثق على ذلك.

المعتصم بالله محمد أخوه: بُويع يوم موته، فأقام ثماني سنين وثمانية أشهر، وتُوفي في ربيع الأول، سنة سبع وعشرين ومئتين، وعمره ثمان وأربعون.

الواثق بالله هارون ولد المعتصم: بُويع يوم موته، فأقام خمس سنين، وتسعة أشهر، وتُوفي في ذي الحجة، سنة اثنين وثلاثين ومئتين، وعمره ست وثلاثون سنةً.

المتوكل على الله [جعفر أخوه]: بُويع يوم موته، فأقام أربع عشرة سنةً وتسعة أشهر، ورفع محنة القول بخلق القرآن، وأظهر السنة، وأكرم الإمام أحمد، ثم قُتل بمكيدة ولده المنتصر، في شوال سنة سبع وأربعين ومئتين، وعمره إحدى وأربعون سنةً، ومن حين قُتل صارت خلافة بني العباس مضطربة وكادت تزول، وهو أول خليفة حُجر عليه، ومن كلامه:

أليس من العجائب أن مثلي
يرى ما قل ممنوعاً لديه
وتؤكل الدنيا باسمه جميعاً
وما منها قليل في يديه

[المنتصر بالله محمد] ولد المتوكل: بُويع يوم موته، فأقام ستة أشهر، ومات سنة ثمان وأربعين ومئتين، في ربيع الآخر، وعمره أربع وعشرون سنةً.

المستعين بالله أحمد بن محمد ابن المعتصم: بُويع يوم موت المنتصر(١)، فأقام ثلاث سنين وتسعة أشهر، وخلع نفسه في المحرم،

(١) في المتن «المستنصر»، والصواب أنه «المنتصر» كما هو ثابت في كُتب التواريخ، وباقي النسخ.

عام اثنين وخمسين ومئتين.

المعتز بالله محمد ابن المتوكل: بُويع يوم خلع المستعين، فأقام ثلاث سنين وسبعة أشهر، وخلع نفسه في شعبان سنة خمس وخمسين ومئتين.

المهتدي بالله محمد ابن الواثق: بُويع يوم خلع المعتز، فأقام أحد عشر شهـراً، وكان عادلاً مرضياً، ثم قُتل رابـع عشر رجب، سنة ست وخمسين ومئتين.

المعتمد على الله أحمد ابن المتوكل: بُويع يوم قتل ابن عمه، فأقام ثلاثاً وعشرين سنةً، وتُوفي سنة تسع وسبعين ومئتين.

المعتضد بالله أحمد ابن [الموفق](١)**:** بُويع يوم موت عمه، فأقام تسع سنين وتسعة أشهر، وتُوفي في جمادى الآخرة، سنة تسع وثمانين ومئتين، وأقام في أيامه دولة بني العباس.

المكتفي بالله علي ولد المعتضد: بُويع يوم موته، فأقام ست سنين وستة أشهر، وتُوفي في ذي القعدة، سنة خمس وتسعين ومئتين.

[المقتدر بالله جعفر] أخوه: بُويع يوم موته، فأقام أربعاً وعشرين سنةً، وأحد عشر شهراً ونصفاً، وقُتل بشوال سنة عشرين وثلاث مئة.

القاهر بالله محمد أخوه: بُويع يوم قتله، فأقام سنةً واحدةً وستة

---

(١) في المتن «الواثق» والصواب «الموفق» كما هو ثابت في كُتب التواريخ، وباقي النسخ.

أشهر، ثم خُلع [وأَكحلـوه][1] في جمـادى الأولى عـام اثنين وعشرين وثلاثمئة.

الراضي بالله محمد ابن المقتدر: بُويع يوم خلع عمه، فأقام نحو سبع سنين، وتُوفي في ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاث مئة.

المتقي لله إبراهيم أخوه: بُويع يوم موته، فأقام ثلاث سنين وأحد عشر شهراً، وخُلع [وأُكحل] في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة.

المستكفي بالله عبدالله ابن المكتفي: بُويع يوم خلع المتقي، فأقام سنةً وأربعة أشهر، وخُلع في جمادى الآخرة، سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة.

[المطيع لله] الفضل ابن المقتدر: بُويع يوم خلع المستكفي، فأقام تسعاً وعشرين سنةً وأربعـة أشهر، [وخُلع في ذي] القعـدة، سنة ثلاث وستين وثلاث مئة.

[الطائع لله] عبد الكريم ولده: بُويع يوم خلع أبيه، فأقام سبع عشرة سنةً وتسعة أشهر، وخلع نفسه سنة إحدى وثمانين وثلاث مئة.

القادر بالله أحمد بن إسحاق ابن المقتدر: بُويع بعد خلع الطائع لله، فأقام إحدى وأربعين سنةً وثلاثة أشهر، وتُوفي في ذي الحجة، عام اثنين وعشرين وأربع مئة.

---

(١) أكحلوه: بمعنى أنـه يُكحل من يُراد الإضرار به، بآلة محماة مثل المسمار، تُحمى على النار، ثم تُكحل بها العين فتتلف.

القائم بأمر الله عبدالله ولده: بُويع يوم موت أبيه، فأقام أربعاً وأربعين سنةً وثمانية أشهر، وتُوفي في شعبان سنة سبع وستين وأربع مئة.

المقتدي بالله عبدالله بن محمد ابن القائم: بُويع يوم موت جده، فأقام تسعة عشر سنةً وخمسة أشهر، وتُوفي في المحرم، سنة سبع وثمانين وأربع مئة.

المستظهر بالله أحمد ولده: بُويع يوم موت أبيه، فأقام ستاً وعشرين سنةً، وتُوفي سنة اثنتي عشرة وخمس مئة.

المسترشد بالله الفضل ولـده: بُويع يوم [موت أبيـه، فأقام تسعة عشرة سنةً، وقُتل سنة تسع وعشرين وخمس مئة.

الراشد بالله ولده:] بُويع بعد قتل أبيـه، فأقام سنةً [ثم خُلع سنة] ثلاثين وخمس مئة.

المقتفي لأمر الله محمد ابن المستظهر: بُويع يوم خلع ابن عمه، فأقام خمساً وعشرين سنةً، وتُوفي سنة خمس وخمسين وخمس مئة، وهو الذي كتب العهد لنور الدين الشهيد، بأخذ مصر.

المستنجد بالله يوسف ولـده: بُويع يوم موت أبيـه، فأقام إحدى عشرة سنةً، وتُوفي سنة ست وستين وخمس مئة، وكان عادلاً.

المستضيء بنور الله ولده: بُويع بالخلافة يوم موت أبيه، فأقام تسع سنين وشهراً، وتُوفي سنة خمس وسبعين وخمس مئة، وهو الذي خطب له السلطان صلاح الدين بمصر.

الناصر لدين الله أحمد ولده: بُويع يوم موت أبيه، فأقام سبعاً وأربعين سنةً، وتُوفي عام اثنين وعشرين وستمئة، وعاش تسعين سنةً، وخُطب له حتى بالصين والأندلس.

الظاهر بالله محمد ولده: بُويع يوم موت أبيه، فأقام تسعة أشهر، وتُوفي سنة ثلاث وعشرين وستمئة.

المستنصر بالله أحمد ولده: بُويع يوم موت أبيه، فأقام سبعة عشر سنةً، وتُوفي سنة تسع وثلاثين وست مئة.

المستعصم[1] **بالله ولده**: بُويع يوم موت أبيه، وهو آخر الخلفاء ببغداد، وكان فيه لينٌ وقلة معرفة، فأقام سبع عشرة سنةً، وقتله التتار، سنة ست وخمسين وست مئة، بمكيدة وزيره ابن العلقمي[2] الخبيث الرافضي.

ووقع السيف ببغداد أربعين يوماً، فقُتل فوق ألفي ألف، وبقتل المستعصم خربت بغداد، وانقضت الخلافة الإسلامية منها بدخول التتار واستيلائهم عليها.

---

(١) في المتن «المعتصم» والصواب «المستعصم» كما هو ثابت في كل كُتب التواريخ.

(٢) قال الذهبي: ابن العلقمي، الوزير الكبير، المدبر المبير، مؤيد الدين محمد ابن محمد بن علي بن أبي طالب ابن العلقمي البغدادي الرافضي، وزير المستعصم، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٣٦٢ (٢٦١).

فأقام الناس بغير خليفة ثلاث سنين، وعلَّق التتار المصاحف في أعناق الكلاب، وقلبوا المساجد كنائس، وألقوا كتب الأئمة في الدجلة، حتى صارت كالجسر تمرُّ الخيل عليها، وبذلك انقرضت المذاهب، ما عدا المذاهب الأربع؛ لكونها كانت قد انتشرت وضُبطت بالتدوين، فاختيرت لذلك.

ومن حينئذٍ ذهبت محاسن بغداد كأنها لم تكن، بعد أن كان بها اثني عشر ألف خان، واثني عشر ألف طاحون، وأربعة وعشرون ألف سوق، وستون ألف حمام، وثمان مئة ألف مدرسة.

ومن جوامعها: الرصافة، يسع مئة ألف كانوا يحضرون ابن الجوزي[1]، وكان سورها المحيط بها ثلاثة أيام بلياليها، ويُقال: كان يمشي على عرضه ستون فارساً عرضاً غير مزدحمين، ومات بها الإمام أحمد بن حنبل، فحضر جنازته ألف ألف وست مئة ألف، ضُبط ذلك بالمساحة، وكانت أجلَّ مدن الدنيا، وانتقلت الخلافة منها لمصر، لكن فرق ما بين الثريا والثرى.

❐ ❐ ❐

---

(١) قال الذهبي: أبو الفرج ابن الجوزي، الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق، جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن محمد القرشي البكري البغدادي الحنبلي، صاحب التصانيف، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٦٥ (١٩٢).

ذكر خلفاء مصر من العباسيين

المستنصر بالله ولد الظاهر: وصل إلى القاهرة سنة تسع وخمسين وست مئة، في أيام الملك الظاهر بيبرس، فتلقاه وبايعه مع أهل الحَلِّ والعقد بالخلافة، ثم سافر للعراق، فودَّعه الملك الظاهر بيبرس إلى الشام، ثم فارقه الخليفة متوجهاً إلى العراق، فقتله التتار أيضاً، وهذا لم يستقر له مكان.

الحاكم بأمر الله أحمد ابن [الراشد] العباسي: أُحضر إلى مصر، وأثبتوا نسبه، وأقام بمصر، وهو أول الخلفاء بها، وذريته إلى يومنا هذا، بُويع ثامن المحرم سنة إحدى وستين وست مئة، فأقام نيفاً وأربعين سنةً، وتُوفي سنة إحدى وسبع مئة، ودُفن بجوار السيدة نفيسة[1].

المستكفي بالله سليمان ولده: بُويع يوم موت أبيه، فأقام إحدى وأربعين سنةً، وخُلع ونفاه الملك الناصر إلى قوص[2]، واستمر بها إلى

(١) قال الذهبي: السيدة المكرمة الصالحة، نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن ابن علي رضي الله عنهما، العلوية الحسنية، تهذيب الكمال: ١٠/ ١٠٦ (٦).

(٢) قال ياقوت الحموي: قوص، مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، =

أن مات في شعبان، عام اثنين وأربعين وسبع مئة.

الواثق بالله إبراهيم: بايعه الناصر بعد موت المستكفي، وكان إنما عهـد لولده أحمد، فأقام نحو سنة، ثم ندم الناصر عند موته، وأوصى بخلع إبراهيم وعود الخلافة لأحمد، فخُلع في أول المحرم، عام اثنين وأربعين وسبع مئة.

الحاكم بأمر الله أحمد ولـد المستكفي: بُويع يوم خلع إبراهيم، بايعه ابن الناصر والقضاة والعلماء، فأقام إحدى عشرة سنةً، وتُوفي سنة ثلاث وخمسين وسبع مئة.

المعتضد بالله أبو بكر ولد المستكفي: بُويع يوم مات أخوه، فأقام عشر سنين، وتُوفي سنة ثلاث وستين وسبع مئة.

المتوكل على الله محمد ولده: بُويع يوم مات أبوه، فأقام نحو ستة عشر سنةً، وخُلع في سنة تسع وسبعين وسبع مئة.

المعتصم بالله زكريا بن إبراهيم: بُويع يوم خلع المتوكل، فأقام نحو شهر وخلع.

المتوكل ابن المعتضد: أُعيد ثانياً، فأقام نحو ست سنين، وخلعه برقوق، سنة خمس وثمانين وسبع مئة.

الواثق بالله عمر: بُويع بالخلافة بعد خلع المتوكل، فأقام نحو ثلاث سنين، وتُوفي سنة ثمان وثمانين وسبع مئة.

= معجم البلدان: ٤/ ٤٦٩ (٩٩٨٠).

المعتصم زكريا: أعاده برقوق ثانياً، فأقام نحو ثلاث سنين، وتُوفي سنة إحدى وتسعين وسبع مئة.

المتوكل على الله: أُعيد للخلافة ثالثاً، فأقام نحو سبع عشرة سنةً، وتُوفي سنة ثمان وثمان مئة، فكان مجموع مدة خلافته ـ بما فيها من الخلع والحبس ـ نحو خمس وأربعين سنةً، وخلَّف عشرة أولاد ذكـور، تولّى بعده منهم خمسة.

فأولهم: [المستعين بالله] أبو الفضل العباس: بُويع بعدما مات أبوه المتوكل، فأقام إلى سنة أربع عشرة، ثم تسلطن ستة أشهر، ثم خلعه المؤيد شيخ سنة خمس عشرة وثمان مئة، وحُبس بالإسكندرية إلى أن مات بها.

المعتضد بالله أبو الفتح داود أخوه: بُويع يوم خلعه من السلطنة، فأقام ثلاثين سنةً، وتُوفي في سنة خمس وأربعين وثمان مئة، وبلغ ما لم يبلغه عباسيٌّ قبل بمصر، وصلّى عليه الملك الظاهر جقمق، ومشى في جنازته للمشهد النفيسي.

[المستكفي بالله سـليمان] أخـوه: بُويـع يـوم موتـه، فأقام عشر سنين، وتُوفي سنة خمس وخمسين وثمان مئة، وبلغ من العِّز فوق أخيه، وحمل السلطان نعشه.

القائم بأمر الله حمزة أخوه: بُويع يوم موته، فأقام أربع سنين، وخلعه الملك الأشرف أينال، سنة تسع وخمسين وثمان مئة، وأرسله للإسكندرية محتجاً بما أفتاه الشافعية من أنَّ للسلطان أن يخلع الخليفة.

المستنجد بالله أبو المحاسن يوسف ـ خامس الإخوة ـ: بُويع يوم خلع أخيه، يوم الخميس، ثالث رجب، سنة تسع وخمسين، فأقام خمساً وعشرين سنةً، وتُوفي في رابع عشر المحرم، سنة أربع وثمانين وثمان مئة.

المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز: بُويع يوم الاثنين، سادس عشري المحرم، بعهدٍ من عمه المستنجد، سنة أربع وثمانين وثمان مئة، بحضرة السلطان قايتباي، فأقام نحو تسع عشرة سنة، وتُوفي سنة ثلاث وتسع مئة.

المستمسك بالله يعقوب ولده ـ ويُلقَّب المستنصر بالله أيضاً ـ: بُويع بعد أبيه، واستمر إلى أيام الدولة العثمانية، وتُوفي سنة سبع وعشرين وتسع مئة.

المتوكل على الله محمد ولد يعقوب: بُويع بالقسطنطينية، وكان السلطان سليم قد أخذه معه، فلما تُوفي سليم عاد المتوكل هذا إلى مصر، وصار خليفةً بها، إلى أن مات في شعبان، سنة خمسين وتسع مئة، في أيام داود باشا، وبموته انقطعت الخلافة العباسية الصورية من الدنيا، فسبحان من لا يزول ملكه.

❑ ❑ ❑

بابٌ في ذكر سلاطين [مصر في] الإسلام

وهو المقصود بالذات؛ لأن الخلفاء الذين كانوا بها من العباسية لم يكن لهم من الخلافة إلا الاسم، والمستقل بالأمور والتصرف إنما هو السلاطين، غاية الأمر أنهم كانوا يأتون بالخليفة للسلطان الذي يريدون توليته فيبايعه، ويقول له: ولَّيْتُك السَّلطنة.

وكان سلاطين الأقاليم يتبرَّكون بهم، ويرسلون إليهم أحياناً يطلبون منهم تفويض السلطنة، فيكتبون له بذلك، وقد رُفع هذا من عهد السلطان سليم فاتح مصر.

إذا تقرر هذا: [فاعلم ـ وفَّقك الله تعالى] ـ أن مصر في صدر الإسلام لم يكن ولاتها مستقلين بالأمر، بل كانوا نُوّاباً عن الخلفاء الراشدين، ثم عن خلفاء بني أمية، ثم عن الخلفاء العباسيين بالعراق.

واستمر الحال على ذلك [إلى أن تولى أحمد بن طولون] نائباً عن الخليفة المعتز بالله العباسي في رمضان، سنة أربع وخمسين ومئتين، وأُضيفت إليه نيابة الشام والعواصم، والثغور وأفريقية.

وكان أبوه طولون من الأتراك الذين أهداهم عامل بخارى للمأمون ابن الرشيد، فلما قويت شوكة أحمد بن طولون، تغلَّب على مصر، وصار

سلطاناً بها وبغيرها، ولم يدَّعِ الخلافة، ولا الخروج عن نيابة العباسيين.

وهو أول من تَسَلطن بمصر في الإسلام، فكان لـه ما بين الرحبة بنواحي الموصل، إلى أقصى المغرب، واستمر إلى أن تُوفي ليلة الأحد، عاشر ذي القعدة، سنة سبعين ومئتين، ودُفن خارج باب القرافة، وكانت مدة سلطنته ست عشرة سنةً وشهرين.

وخلَّف عشرة آلاف ألف دينار، وسبعة آلاف فرس، وسبعة آلاف مملوك، وثلاثة وثلاثين ولداً.

وهو الذي تحـوَّل من دار النيابـة بقصر الشمع، إلى قصرٍ بناه بين مصر والقاهرة، وسمّاه القطائع، ويُقال: هو الميدان الذي تحت القلعة بالرُّميلة الآن.

وبنى إلى جانبه الجامع الطولوني الكبير، المشهور به الآن، عمّره بعد ولايته بعشر سنين، وابتدأ بناءه سنة ثلاث وستين ومئتين، وأقاموا فيه ثلاث سنين، وبلغت النفقة على بنائه مئة ألف دينار وعشرين ألفاً، وجعل دائره منطقة عنبر معجون، ليفوح ريحها على المصلِّين.

بناه بكنزٍ وجده مقدار ألف ألف دينار، فأنفقها كلها في أبواب البر، وجعل إمامه القاضي بكار[1]، ومحدِّثه الربيع بن سليمان[2]، تلميذ الإمام

(١) قال الذهبي: بكار بن قتيبـة بن أسد بن عبيـدالله أبـو بكرة الثقفي البكرواي البصري، القاضي الكبير، العلاّمة المحدث، الفقيه الحنفي، قاضي القضاة بمصر، سير أعلام النبلاء: ١٢/ ٥٩٩ (٢٢٩).

(٢) قال الذهبي: الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل أبو محمد المرادي، =

الشافعي، ووقف عليه كثيراً من [الرباع] ونحوها، ولم يتعرض إلى شيءٍ من أراضي مصر، وكان يتصدق في كل أسبوع بثلاثة آلاف دينار سوى الرواتب، [وكان خراج مصر] في أيامه أربعة آلاف ألف دينار.

ويُقال إنه أُحصي من قتله ابن طولون، ومن مات بحبسه، فبلغوا ثمانية عشر ألفاً، ورآه بعض الصوفية بعد موته في المنام بحالةٍ حسنة، فقال: عُدل بي عن النار إلى الجنة بسبب إنصاف المظلوم، وسماع كلامي له، وما في الآخرة أشد على رؤساء الدنيا من الحجاب [الملتمس] الإنصاف.

[وفي أيامه] كان ظهور رأس الزنج[1] بنواحي العراق، ادَّعى النبوة والاطلاع على المغيبات، وقتل من المسلمين ألف ألف وخمس مئة ألف، وقتل في يوم واحدٍ بالبصرة ثلاث مئة ألف، وكان يسبُّ على منبره عثمان وعلياً ومعاوية، وطلحة والزبير وعائشة، إلى أن قُتل في سنة سبعين.

= مولاهم المصري المؤذن، صاحب الإمام الشافعي، وناقل علمه، وشيخ المؤذنين بجامع الفسطاط، ومستملي مشايخ وقته، روى له الأربعة، سير أعلام النبلاء: ١٢/ ٥٨٧ (٢٢٢)، تهذيب الكمال: ٩/ ٨٧ (١٨٦٤).

(١) قال الذهبي: الخبيث، طاغية الزنج، علي بن محمد بن عبد الرحمن العبدي، من عبد القيس، افترى وزعم أنه من ولد زيد بن علي العلوي، وكان منجماً طرقياً ذكياً، حروريا ماكراً، داهية منحلاً، على رأي فجرة الخوارج، يتستر بالانتماء إليه، وإلا فالرجل دهري فيلسوف زنديق، سير أعلام النبلاء: ١٣/ ١٣٠ (٦٦).

وفي أيامه جرت للقاضي بكار معه محنة، بسبب عدم لعنه الموفق وليِّ عهد المعتمد العباسي؛ لأن الموفق كان ضيَّق على أخيه المعتمد، واستقل بالأمور، ولم يبق للمعتمد من الخلافة سوى الاسم.

فاستعان المعتمد بابن طولون فأعانه، وجمع القضاة والفقهاء والأشراف، وسيَّرهم إلى دمشق، فاجتمعوا بها، وخلع الموفق، وأرسل يُخبر المعتمد بأنه خلع الموفق من ولاية العهد.

وكان الفقهاء كلهم أفتوا بخلعه، إلا القاضي بكار، فأمر الموفق ببغداد بلعن ابن طولون، وكتب لعنه على أبواب المساجد، فأمر ابن طولون بلعن الموفق، وهو بدمشق، وأمر القاضي بكار بذلك، وكان من صحبته فامتنع، فغضب عليه بعد أن كان عنده في غاية الإكرام.

وكان يعطيه في كل سنةٍ ألف دينار، فأرسل يطلبها منه، فأحضرها من منزله بخواتمها لم يفكَّها القاضي بكار، ستة عشر كيساً، في كل كيسٍ ألف دينار، فقبضها منه.

وألحَّ عليه في لعن الموفق، فقال القاضي بكار: ألا لعنة الله على الظالمين، فقال علي بن الحسين بن طباطبا: أيها الأمير! إنه عناك، فغضب وأمر بتمزيق ثيابه، وجرُّه برجله وأدخله الحبس، فكان القاضي بكار يحدث الناس من طاقٍ في السجن.

ثم [تولى بعد أحمد بن] طولون ولده أبو الجيش خمارويه، ومات ليلاً مذبوحاً بدمشق، ذبحه بعض خدمه على فراشه! لكثرة فساده بهم، في ذي القعدة، عام اثنين وثمانين ومئتين، وكانت مدته اثنتي عشرة سنةً.

وهو الذي زوَّج ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد، وجهزها بجهاز لم يُر مثله، من ذلك كما قال الذهبي: ألف هونٍ من ذهب، وبنى لها على رأس كل منزلةٍ قصراً، فيما بين مصر وبغداد، كل قصرٍ فيه جميع ما تحتاج إليه من فرشٍ وستورٍ وغير ذلك، حتى كأنها في قصر أبيها.

ولما دخل بها المعتضد أحبها حباً شديداً، لجمالها وأدبها، ويُقال إنه طرقها الحيض حينئذٍ، فلما مدَّ يده إليها قالت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾[النحل: ١] فَلَمَّ يده عنها.

وفي أيامه سنة ثمان وسبعين ظهرت القرامطة بالكوفة، وهم نوعٌ من الملاحدة، يدّعون أنه لا غُسل من الجنابة، وأن الخمر حلال، وأن الصوم في السنة يومان، يوم [النيروز] والمهرجان، ويزيدون في أذانهم، وأن محمداً ابن الحنفية رسول الله.

وفي عام ثمانين فشا أمر عبيدالله المهدي، جد الفواطم بالقيروان(١)، وصار أمره في زيادة.

ثم تولّى أبو العساكر جيش ولد خمارويه تسعة أشهر، ثم قُتل في سنة ثلاث وثمانين ومئتين.

ثم تولّى أبو موسى هارون أخوه ـ ولد خمارويه المذكور ـ تسع سنين، والتزم للخليفة المعتضد في كل سنةٍ بألف ألف دينار، فأقره

(١) قال ياقوت الحموي: القيروان، مدينة عظيمة بأفريقية، بناها عقبة بن نافع، معجم البلدان: ٤/ ٤٧٧ (١٠٠٢٦).

الخليفة على ذلك، واستمر إلى أن قتله عمّاه ولدا أحمد بن طولون، في ثامن عشر صفر، سنة اثنين وتسعين ومئتين.

وفي أيامه ظهر بالبحرين أبو طاهر القرمطي[1].

ثم تولّى أبو المغازي شيبان بن أحمد بن طولون عشرة أيام ثم قُتل، وبه مضت دولتهم، وجملتها سبع وثلاثون سنةً وشهراً.

ثم أُعيدت مصر لنيابة العباسيين في خلافة المكتفي بالله، في حدود عام اثنين وتسعين ومئتين، واستمرت إلى عام اثنين وعشرين وثلاث مئة.

وفي تلك المدة ـ سنة سبع وتسعين ومئتين ـ غلب أمر عبيدالله المهدي الفاطمي بالمغرب، وسُلم عليه بالإمامة، ودُعي له بالخلافة، وبسط في الناس العدل والإحسان فانحرفوا إليه، وتمهد له المغرب، وعظم ملكه جداً، وخرجت بلاد المغرب من أمر بني العباس من هذا التاريخ.

واستمرت مصر في أيدي العباسيين، فتغلب عليها الإخشيد محمد ابن طغج التركي الفرغاني، وأخذها قهراً في خلافة الراضي، ثم وصل له التقليد من الراضي في سنة أربع وعشرين وثلاث مئة.

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وكــانَ هــذا فــي زَمــانِ الرّاضــِي
وهْــوَ بِبغــدادَ ولــيسَ راضــِي

---

(١) قال الذهبي: القرمطي، عدو الله ملك البحرين، أبو طاهر سليمان بن حسن القرمطي الجنابي، الأعرابي الزنديق، سير أعلام النبلاء: ١٥/ ٣٢٠ (١٥٩).

لكنَّهــــا تَفَرَّقَــــتْ مَمْلَكَتُــــهْ

مِــنْ يــدِهِ لمّــا تَواهَــتْ دَوْلَتُــهْ

وكان الإخشيد ملكاً شجاعاً، مقداماً حازماً، متيقّظاً حسن التدبير، عارفاً بالحروب، شديد البطش، ذا قوةٍ مفرطةٍ، وهيبةٍ عظيمةٍ، وموكبه يضاهي موكب الخلافة، وبلغت عدة جيوشه أربع مئة ألف، وهو أستاذ كافور الآتي ذكره.

وفي ذلك الزمان اختل أمر الخلافة العباسية، وتغلب أمراء الأطراف على البلاد، ما بين خارجي قـد تغلب عليها، أو عامل لا يحمل مالاً، وصارت الدنيا في أيدي عُمّالها.

فكانت مصر والشام في يد الإخشيد، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في أيدي بني حمـدان، وواسط والبصرة والأهواز في يـد اليزيدي، وكرمان في يد محمد بن إلياس، والري وأصبهان والجبل في يد الحسن بن بويه.

والمغرب وأفريقيـه في يد أبي عبدالله الصنعاني، صاحب الدعوة لعبيدالله المهدي، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والبحرين واليمامة وهجر في يد أبي طاهر القرمطي، الذي اقتلع الحجر الأسود، والأندلس في يد الأمير عبد الرحمن الأموي، وادعى الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله.

واستمر الإخشيد بمصر إلى أن تُوفي بدمشق، في ثامن ذي الحجة،

سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة، ودُفن ببيت المقدس، فمدته إحدى عشرة سنةً وثلاثة أشهر.

وفي أيامه قدم أبو طاهر القرمطي إلى مكة، سنة سبع عشرة وثلاث مئة، فقتل الحاج يوم التروية، وقتل في المطاف ألفاً وسبع مئة محرم، وفتك بمكة، فقتل أزيد من ثلاثين ألفاً، وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك، وعاد على هجر[1].

وخطب لعبيدالله المهدي الفاطمي صاحب المغرب، فكتب إليه: إن أعجب العجب إرسالك بكتبك إلينا، ممتناً بما ارتكبت في بلد الله الأمين، من انتهاك بيت الله الحرام، الذي لم يزل محترماً في الجاهلية والإسلام، وسفكت دماء منْ فيه مِن المسلمين، وفتكت بالحجاج والمعتمرين.

وتعديت وتجرأت على بيت الله تعالى، وقلعت الحجر الأسود، الذي هو يمين الله في الأرض، يُصافح به عباده، وحملته إلى منزلك، ورجوت أن أشكرك على ذلك، فلعنك الله، ثم لعنك الله، ثم لعنك الله، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده، وقدَّم في يومه ما ينجو به في غده، فلما وصل كتاب المهدي للقرمطي انحرف عن طاعته.

---

(١) قال ياقوت الحموي: هجر، مدين وهي قاعدة البحرين، وربما قيل الهجر، بالألف واللام، وقيل ناحية البحرين كلها هجر، معجم البلدان: ٥/ ٤٥٢ (١٢٦٣٧).

وفي أيامه أيضاً مات المهدي صاحب المغرب، جد الخلفاء المصريين، الذين تسميهم العامة بالفاطميين، فإن المهدي هذا ادعى أنه علوي، وأنه ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، قال المؤرخون: وإنما جده مجوسي، وقيل: يهودي، وهو شرٌّ منهما.

كان باطنياً خبيثاً، حريصاً على إزالة ملة الإسلام، أعدم العلماء والفقهاء، ليتمكن من إغواء الخلق، وكانت مدته خمساً وعشرين سنةً، وجاء أولاده على أسلوبه، لا سيما ابنه القائم، كان شراً من أبيه، زنديقاً ملعوناً، أظهر سبَّ الأنبياء، وكان مناديه ينادي: العنوا الغار وما حوى.

[ثم تولى بمصر أبو القاسم] ولد الإخشيد، وكان صغيراً، فوُسِّد الأمر للخادم كافور الإخشيدي.

وفي أيامه ـ سنة تسع وثلاثين ـ أُعيد الحجر الأسود إلى موضعه، اشتراه الخليفة المطيع لله بثلاثين ألف دينار، بعد أن مكث عند القرامطة اثنتين وعشرين سنةً، ولما أخذه القرامطة هلك تحته أربعون جملاً، وقيل: ثلاث مئة، وقيل: خمس مئة، ولما أُعيد إلى مكة حُمل على قعودٍ أعجف فسمن.

ثم [تولى أبو الحسن عليٌّ] أخو المذكور ـ والكلام لكافور ـ أكثر مما كان في دولة أخيه، فأقام خمس سنين وشهرين.

وفي أيامه ـ سنة إحدى وخمسين ـ، غلب أمر الشيعة ببغداد، حتى كتبوا على أبواب المساجد لعْن معاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم.

ثم تولّى كافور [الإخشيدي]، عبد الإخشيد المكنى بأبي المسك الخصي، كان حبشياً أسود، بيع بثمانية عشر ديناراً، تسلطن في صفر، سنة خمس وخمسين وثلاث مئة، فأقام سنتين وأربعة أشهر.

وكان يُدعى لـه على المنابـر بمصر والشام والحجـاز، وتُوفي في العشرين من جمـادى الأولى، سنة سبـع وخمسين وثلاث مئـة، ودُفن بالقرافة، وله مقامٌ مشهور، وله مآثر حميدة.

وكان كافور خبيراً بالسياسة، فطناً ذكياً جيد العقل، يُداري ويخدع، فكان يُهادي المُعِزَّ صاحب المغرب، ويُظهر ميله إليـه، ويُذعن الطاعة لبني العباس، وكانـت جواسيس المعز بمصر يكاتبونه: إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز الدنيا كلها، ويعنون بالحجر الأسود كافور.

قال بعضهم: لم يبلغ أحـدٌ من الخصيان ما بلغ كافـور، ومدحـه المتنبي وغيره، وقال بعض الوعاظ بمصر: من هوان الدنيا على الله تعالى، أنه أعطاها لخصي، فرُفع إلى كافور ظناً أنه يُعاقبه، فرسم له بخلعةٍ ومئة دينار.

ووقعت في أيامـه زلزلـة بمصر، ففزع الناس لهـا، فأنشـد بعض الشعراء بقوله:

ما زُلْزِلَتْ مِـصْرُ مِـنْ خَـوْفٍ يُـرادُ بهـا
لكنَّهـا رقـصَتْ مِـنْ عَـدْلِكُمْ طَرَبـا

فأجازه كافور بألف دينار.

وكـان سائراً ذات يومٍ، وفي أصحابه شريفٌ راكب، فسقط سوط كافور من يده، فنزل الشريف! وناوله إياه، فقال: أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية، ما ظننت أن الزمان يبلغني هذا، ورسم لـه بهديـةٍ يزيد ثمنها على خمسة عشر ألف دينار.

ثم تولى أبو الفوارس أحمد بن علي ابن الإخشيد، وعمره اثنتا عشرة سنةً، فأقام سنةً واحدةً، إلى أن جاء جوهر القائد، فانتزعها منه، وزالت دولتهم.

[وفي] أيامه ـ سنة سبع وخمسين ـ ملك القرامطة دمشق، وعزموا على قصد مصر ليملكوها، فجاء العبيديون فأخذوها، وقامت دولة الرفض في الأقاليم؛ المغرب ومصر والعراق، والله أعلم.

❐ ❐ ❐

[الدولة العبيدية]

[ثم جاءت] الدولة العبيدية الفاطمية:

نسبةً لعبيدالله المهدي صاحب المغرب، أو لفاطمة الزهراء رضي الله عنها بحسب دعواهم الكاذبة؛ لأن أكثر المؤرخين قالوا: إنهم من أولاد الحسين ابن محمد بن أحمد ابن القداح، وكان مجوسياً، وقيل: يهودياً كما مرَّ، وارتفعت بهم النيابة العباسية من مصر، سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة.

وتسمَّوا بالخلفاء وأمراء المؤمنين، وذلك باطل، بل هم متغلبة خوارج، وإمامتهم باطلة؛ لأنهم قاموا والخلافة العباسية قائمة ببغداد، ولا تصح البيعة بالخلافة لإمامين.

قال الفقهاء: لو بويع بالخلافة اثنان فالإمام الأول.

وقال صاحب الأنوار الشافعي(١): لا يجوز نصب إمامين في وقتٍ.

ومبدأ ظهور الفواطم بالمغرب، وأولهم: المهدي [بالله عبيدالله

---

(١) صاحب كتاب الأنوار، هو جمال الدين يوسف بن إبراهيم الأردبيلي الشافعي، وكتابه هو «الأنوار لعمل الأبرار»، في الفقه الشافعي، كشف الظنون: (١٩٥)، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٢/ ١٣٨ (٦٧٦).

باني] المهدية[1]، تولى بالمغرب خمساً وعشرين سنةً وثلاثة أشهر.

القائم بأمر الله [محمد]: تولى بالمغرب أيضاً اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر.

المنصور [إسماعيل] صاحب أفريقية: تولى بالمغرب فأقام اثنتين وثلاثين عاماً.

إذا تقرر هذا: فأولهم بمصر المُعِزّ لدين الله أبو تميم معد ابن المنصور إسماعيل ابن القائم ابن المهدي، صاحب المغرب بُويع بالمغرب بعد موت أبيه المنصور، فأقام أربعاً وعشرين سنةً، وتُوفي بمصر سنة خمس وستين، كما سيأتي.

ومعد هذا هو الذي بُنيت له القاهرة بنية المفاخرة للعباسيين ببنائهم بغداد والجامع الأزهر، على يد جوهر القائد الخادم وزيره، وهو من كبار الرافضة، دخلها قبل المُعِزِّ في مئة ألف مقاتل، فأخذ مصر بلا قتال؛ أنه لما مات كافور لم يبق من تجتمع عليه القلوب، وأصابهم غلاء شديد أضعفهم، فكتب جماعةٌ إلى المعزّ يطلبون منه عسكراً ليسلموا إليه مصر، فأرسل مولاه جوهر القائد فاستولى عليها في خلافة المطيع لله العباسي، وشرع في بناء القاهرة، ودار الإمارة المعروفة الآن بالقصرين، سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة.

---

(١) قال ياقوت الحموي: المهدية، بناها أول خلفاء الفاطميين بالمغرب المهدي وسماها باسمه، معجم البلدان: ٥/ ٢٦٥ (١١٧٤٦).

وخرجت مصر والشام والحجاز والمغرب وصقلية عن بني العباس من حينئذٍ، وشرع في بناء الجامع الأزهر سنة تسع وخمسين وثلاث مئة، وكَمُلَ بناؤه في سابع رمضان، سنة إحدى وستين.

وفي سنة تسع أمر جوهر القائد المؤذنين أن يؤذنوا بـ: حيَّ على خير العمل، وفي سنة ستين أعلن المؤذنون بدمشق بـ: حيَّ على خير العمل، بأمر المعز، بعد أن شق ذلك على الناس.

وأقر جوهر القضاة على حالهم، غير أنه ألزمهم أن يحكموا في المواريث وفي الطلاق والهلال بقول أهل البيت، وجعل الهلال شهراً ثلاثين، وشهراً تسعاً وعشرين.

وكان جد المعز عبيدالله المهدي المتغلب على [المغرب] ـ في سنة إحدى وثلاث مئة ـ قدم في أربعين ألفاً ليأخذ مصر، فعجز ورُدَّ خائباً.

وفي سنة ست وثلاث مئة أقبل القائم ابن المهدي في جيوشه، فأخذ الإسكندرية وأكثر الصعيد، ثم رجع، ثم بعد ذلك عام ثمان وخمسين جاءها جوهر القائد، فأخذها كما مرَّ.

ثم أتى المعز لدين الله عام اثنين وستين وثلاث مئة، ومعه ألف وخمس مئة جمل موسوقة ذهب عين، وأحضر صحبته توابيت آبائه، ودفنهم في قصره بالقاهرة، وامتدحه شاعره محمد بن هانئ[١]

---

(١) قال الذهبي: شاعر العصر أبو الحسن محمد بن هانئ الأزدي المهلبي الأندلسي، نظمه بديع في الذروة، لكنه فاسق خمّير يتهم بدين الفلاسفة، =

بقصيدة يقول فيها:

شعر:

يقولُ بنـو العبّـاسِ هـل فُتِحَـتْ مِـصْرُ

فَقُـلْ لبنـي العَبّـاسِ قـد قُـضِـيَ الأَمْـرُ

وكان المعز سبّاباً خبيثاً، إلا أنـه كان فاضلاً عاقلاً، أديبـاً حاذقاً، جواداً ممدوحاً، وفيـه عدلٌ للرعيـة، حضرته امرأة كافور الإخشيدي، وادَّعت على يهودي بثوبٍ منسوجٍ باللآلئ اليتيمة فأنكرها، فأمر المعزّ بتفتيش دار اليهودي، فوُجد الثوب، فدفعه لها، فعرضته على المعزّ فلم يقبله، فشكره الناس على ذلك.

وفي أيامه ـ سنة ستين وثلاث مئة ـ قاتله القرامطة قتالاً شديداً، ثم غلبهم بالمكيدة، وفي سنة ثلاث وستين أقيمت الخطبة والدعوة بالحرمين للمعزّ، وعلا الرفض وزاد بمصر والشام والغرب والشرق، ونودي بقطع صلاة التراويح من جهة المعزّ.

وكانت الخطبة في سائر ممالك الشرق إلى أعمال الفرات وحلب باسم بني العباس، ومن حلب إلى بلاد المغرب كانت الخطبة باسم الخلفاء الفواطم، مع الحرمين الشريفين.

[وفي] سنة ثلاث وستين وثلاث مئة أيضاً خرج بنو هلال وطائفةٌ من العرب على الحُجاج، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وعطّلوا الحج، فلم يَحج

= سير أعلام النبلاء: ١٦/ ١٣١ (٨٨).

تلك السنة سوى أهل درب العراق.

واستمر المُعِزُّ إلى أن تُوفي سابع ربيع الآخر، سنة خمس وستين وثلاث مئة، ودُفن بقصره بالقاهرة عند آبائه، يلقون من الله سبحانه وتعالى ما يستحقون.

[ثم تولى العزيز بالله أبو النصر نزار] ولد المعز المذكور، فأقام إحدى وعشرين سنةً وخمسة أشهر، وتُوفي في الثامن والعشرين من رمضان، سنة ست وثمانين وثلاث مئة، وفُتح له في أيامه زيادة على آبائه حمص وحلب، وخُطب له بالموصل واليمن.

[وفي] أيامه كتب إلى الأموي صاحب الأندلس كتاباً، سبَّه فيه وهجاه، فكتب إليه الأموي: أما بعد، فإنك قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك، فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب؛ يعني: أنك دعيٌّ، لا تُعرف قبيلته.

وصعد يوماً المنبر، فرأى ورقةً مكتوباً فيها:

شعر:

بالظُّلْمِ والجُورِ قد رَضِيْنا
وليسَ بالكُفْرِ والحَماقَةْ

إنْ كُنْتَ أُوْتِيْتَ عِلْمَ غَيْبٍ
بَيِّنْ لنا صاحب البطاقَةْ

لأنهم كانوا يدَّعون علم المغيبات.

[ومن العجب] أنه كان استوزر نصرانياً وولاّه مصر، وآخر يهودياً وولاّه الشام، فعزَّ بسببهما اليهود والنصارى على المسلمين، فكتبت إليه امرأة تشتكي: بالذي أعز اليهود بميشا، والنصارى بابن نسطورس، وأذل المسلمين بك، إلا ما رفعت مظلمتي، فرفعها وعزلهما، وأخذ من النصراني ثلاث مئة ألف دينار.

[ثم تولى الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور] ولد العزيز، فأقام خمساً وعشرين سنة وشهر، إلى أن قُتل بمكيدة أُخته بالجبل المقطّم، سابع عشري شوال، سنة إحدى عشرة وأربع مئة، وسيرته القبيحة مشهورة، وعقيدته الخبيثة مشهورة.

وهو الذي عمل لجامع عمرو بن العاص تنوراً من فضة فيه مائة ألف درهم، وأرسل له من القصر ألفاً ومئتين وتسعين مصحفاً، منها ما هو مكتوبٌ كله بالذهب، وبنى الجامع الحاكمي، ويُقال له: الجامع الأنور، الذي بين باب النصر وباب الفتوح.

وكان قاضيه يكتب على السجل: قاضي القضاة، قاضي عبدالله الإمام الحاكم أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، وعلى آبائه الطاهرين، على القاهرة المعزِّيَّة، ومصر والإسكندرية، وأجياد الشام، والرحبة والرقة[1]، والمغرب وأعمالها، وما فتحه الله تعالى، وما تيسر

---

(١) قال ياقوت الحموي: الرقة مدينة مشهورة على الفرات، معدودة في بلاد الجزيرة؛ لأنها من جانب الفرات الشرقي، معجم البلدان: ٣/ ٦٧ (٥٥٦٤).

فتحه لأمير المؤمنين.

قال أهل التاريخ: لم [يلِ] مصر بعد فرعون شرٌّ من الحاكم، رام أن يدّعي الألوهية، وصار قومٌ من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت، وأمر الرعية بالقيام له عند ذكر الخطيب له عند المنبر إعظاماً له، وأمرهم بالسجود إذا ذُكر اسمه في الخطبة وغيرها في مواضع الاجتماع.

وكان كثير التلوُّن، هدم الكنائس ثم أعادها، وأسلم لذلك ناسٌ من أهل الذمة، ثم أذن لمن أسلم أن يعود إلى دينه، وبنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخربها، وأمر بقتل الكلاب فقُتلت كلها، وحرَّم أكل الملوخية، وأمر بقطع الكروم التي بإقليم مصر والصعيد احترازاً من عصر الخمر.

وأمر الناس بغلق الأسواق نهاراً، وفتحها ليلاً، وكان يتولّى الحسبة بنفسه، فمن وجده قد غش أمر عبداً أسود معه أن يعمل فيه الفاحشة، ومنع النساء أن يخرجن من البيوت، وأمر بسبب ذلك بحرق مصر، فاحترق نحو ثلثها.

وفي أيامه ـ سنة ثلاث وتسعين ـ أمر نائبه بدمشق بمغربيٍّ فطيف به على حمار، ونُودي عليه: هذا جزاء من يُحب أبا بكر وعمر، ثم ضرب عنقه بالسيف.

وفي أيامه ـ سنة خمس وتسعين ـ أمر بمصر بكتابة سبِّ الصحابة على أبواب المساجد والشوارع، وأمر العمال بالسبِّ.

ثم تولى الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي ولد الحاكم، وعمره ست عشرة سنةً، فأقام ست عشرة سنةً وتسعة أشهر، وتُوفي سنة سبع وعشرين وأربع مئة، وكانت عمته قد قامت بتدبير ملكه أحسن قيام إلى أن كبر.

[وفي] أيامه تضعضعت دولة الفاطميين، فخرجت عنهم حلب وأكثر الشام.

وفي أيامه أمر بجمع الجواري الحسان متزينات بالحلي والحلل، ليصنع لهن يوماً حسناً لم يُر مثله بمصر، فاجتمع ما يزيد على ألفين وست مئة جارية حسناء، فأمر ببناء المجلس، وسدَّه عليهن حتى مِتْنَ جميعاً، ثم أمر بحرقهن وما عليهن بعد ستة أشهر.

قال الجلال السيوطي بعد هذه الحكاية: فلا رحمه الله ولا رحم من خلفه.

وقال غير السيوطي: كان الظاهر هذا شجاعاً سمحاً عاقلاً، يميل إلى دين وعفة، وحلم مع تواضع، أزال الرسوم التي جُددت في أيام أبيه الحاكم.

ثم تولى [المستنصر بالله أبو تميم] ابن الظاهر المذكور، وعمره سبع سنين، فأقام ستين سنةً وأربعة أشهر، ولم يقم هذه المدة خليفةٌ ولا ملك في الإسلام قبله ولا بعده، وتُوفي ثامن عشر ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربع مئة، ولم يكن من عهد المستنصر [هذا] من الفواطم

من الخلافة سوى الاسم، لاستيلاء وزرائهم على الأمور، وحجرهم عليهم فيها، كخلفاء بغداد العباسيين مع بني بويه.

وفي أيامه ـ سنة ثلاثين وأربعمئة ـ تعطَّل الحج من سائر الأقاليم، فلم يحج أحد.

وفي أيامه سنة ثمان وأربعين وأربع مئة قُطعت الخطبة للعبيديين بالمغرب، وخُطب لبني العباس، وكذلك فُعل بمكة، وبطل من دمشق الأذان بـ: حيَّ على خير العمل.

وفي سنة خمس وستين وأربع مئة دُعي للعبيدي بجامع المنصور ببغداد، وزيد في الأذان: حيَّ على خير العمل، وخُطب له في كل جوامع بغداد.

وفي سنة ستين وأربع مئة وقع الغلاء الذي لم يُسمع بمثله من عهد يوسف، واستمر سبع سنين، بحيث أبيع الكلب بخمسة دنانير، والهر بثلاثة دنانير، ولم يبق للخليفة سوى ثلاثة أفراس، وبيع الرغيف بمئة دينار.

ثم عُدم القوت، بحيث أن امرأة بذلت مُدَّ جوهر بمُدَّ قمح فلم يلتفت إليها أحد، نعوذ بالله من ذلك، ويُقال: لم يبق للخليفة سوى سجادة وقبقاب، وكان إذا نزل من القصر يستعير بغلة الديوان ليركبها.

ثم تولى المستعلي بالله أبو القاسم أحمد ولد المستنصر بالله المذكور، فأقام سبع سنين، وتُوفي سنة خمس وتسعين وأربع مئة، وكان الكلام في مملكته لوزيره الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي.

وهو بنى الجيوشي بسطح الجبل المقطم، وجامع الجيزة، وجامع العطارين بثغر إسكندرية، وسوق أمير الجيوش المسمى الآن سوق مرجوش، وكان سنياً، وتولى الوزارة للمستنصر والمستعلي، وصدراً من ولاية الآمر، ثم قُتل برمضان، سنة خمس عشرة وخمسمئة، ضربه فداوي وهو راكبٌ فقتله.

قال ابن خلكان: وترك من الأموال ما يفوق العدد؛ من الذهب ست مئة ألف ألف دينار، ومن الفضة مئتين وخمسين إردبّاً[1]، وسبعين ألف ثوباً ديباج أطلس، ودواة ذهب فيها جوهرٌ باثني عشر ألف دينار، وخمس مئة صندوق للبس بدنه، وترك صندوقين كبيرين فيهما إبر ذهب برسم النِّساء، ومن سائر الأنواع ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

ومن محاسنه: أن القاضي كتب إليه رقعةً وهو في الوزارة يقول فيها: إنه وجد في حاصل المواريث مالاً يبلغ مئة ألف دينار، وليس له طالب من عدة سنين، ورفعُه إلى بيت المال أولى، وأراد بذلك التقرب عنده، فوقع فيها: إنما قلدناك قاضياً، ولم نجعلك ساعياً، ولا إرب لنا فيما لا نستحق قبضه، فاتركه على حاله حتى يحضر مستحقه، ولا يُراجعْ في ذلك بعدها.

وفي أيام المستعلي، ظهرت الإفرنج على أرض الشام، فانزعجت بهم الملوك والرّعية، وعظم الخطب، قيل إن المستعلي لما رأى قوة دولة

---

(١) الأردب: مكيال للحبوب مقداره (١٥٠) كيلو جرام.

السلجوقية واستيلائهم على الشام، كاتب الإفرنج، يدعوهم إلى الشام ليملكوه.

فقدمت الإفرنج في ألف ألف مقاتل إلى بيت المقدس، فأخذوه في ضحوة يوم الجمعة، ثالث عشري شعبان، عام اثنين وتسعين وأربع مئة، وقتلوا به أكثر من سبعين ألف من العلماء والصلحاء وغيرهم، وجمعوا اليهود بالكنيسة وأحرقوها عليهم.

وأخذوا حيفا[1] وأرسوف[2] وقيسارية[3]، وتمكَّنت الإفرنج من الشام، ونُقل المصحف العثماني من طبرية[4] إلى دمشق خوفاً عليه، واستولوا على غالب إقليم الشام.

ثم تولّى الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور ولد المستعلي، وعمره خمس سنين، فأقام تسعاً وعشرين سنةً وسبعة أشهر، إلى أن قُتل في

---

(١) قال ياقوت الحموي: حيفا، حصن على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط)، معجم البلدان: ٢/ ٣٨١ (٤٠٤٥).

(٢) قال ياقوت الحموي: أرسوف، مدينة على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط)، كان بها خلقٌ من المرابطين، معجم البلدان: ١/ ١٨٢ (٤٥١).

(٣) قال ياقوت الحموي: قيسارية، بلد على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط)، تُعد من أعمال فلسطين، معجم البلدان: ٤/ ٤٧٨ (١٠٠٢٧).

(٤) قال ياقوت الحموي: طبرية، بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة، وهي في طرف جبل، وجبل الطور مطل عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، معجم البلدان: ٤/ ٢٠ (٧٨٥٤).

الروضة، سنة أربع وعشرين وخمسمئة.

وفي أيامه بُني الجامع الأقمر بالقاهرة، قال الذهبي: كان الآمر رافضياً خبيثاً، فاسقاً ظالماً جباراً، متظاهراً [بالمنكر] واللهو، ذا كِبْر وجبروت.

وفي أيامه قصد [بردويل] ملك الإفرنج أخذ مصر، فأهلكه الله تعالى قبل أن يصل إلى العريش[1]، فشق أصحابه بطنه، وأخرجوا حشوته ورموا بها، فسُمي ذلك المكان بسبخة بردويل، ثم دفنوه بالقمامة بالقدس، وكان هو الذي أخذ بيت المقدس من المسلمين.

ثم تولى الحافظ [لدين الله] عبد المجيد بن محمد ابن المستنصر، ولد عم الآمر، فأقام تسع عشرة سنةً وسبعة أشهر، وتُوفي سنة أربع وأربعين وخمس مئة.

ومن العجب أن الحافظ ولى الوزارة [لبهرام] النصراني [الأرمني]، فأنكروا عليه ذلك، وقال له بعض خواصه: النصراني لا يكون وزيراً؛ لأن من وظيفته أن يصعد مع الخليفة المنبر يوم الجمعة، فأصر على توليته، وأن ينوب عنه القاضي في ذلك.

قال ابن خلكان: إن الحافظ كان يعتريه القولنج، فعمل له بعض

---

(١) قال ياقوت الحموي: العريش، مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام، على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط)، في وسط الرمل، معجم البلدان: ٤/ ١٢٨ (٨٣٥٣).

الحكماء طبلاً إذا ضربه أحدٌ خرج الريح من مخرجه، واستمر بخزائنهم إلى أيام صلاح الدين، فأخـذه كردي لا يدري ما هـو، فضربـه فضرط فخجل، وألقاه من يده فكسره.

وفي أيامه فتح زنكي والد نور الدين الشهيد الرّها[1] من الإفرنج، وسائر الأماكن التي كانت بيد الإفرنج شرقي الفرات.

وفي أيامه قصد نور الدين الشهيد محمود بن زنكي حلب فملكها، وأظهر بها السنـة، وغيَّـر البدعـة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة، وبنى بها المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وجدّ في قتال الإفرنج، وفتح حصونهم، [وملك الإفرنج] المهدية بأفريقية.

[ثم تولى الظافر بأعداء الله] إسماعيل ابن الحافظ، فأقام أربع سنين وسبعة أشهر، وكانت أيامه مضطربـة؛ لحداثـة سنِّه، واشتغالـه باللهـو واللذات، بحيث [إنه] عشق ابن وزيره العباس الصنهاجي، فكان ذلك سبب حتفه، فقُتل بدار الوزارة المعروفة الآن بمدرسة السيوفية، سنة تسع وأربعين وخمس مئة.

وبُني في أيامه الجامع الفاكهاني داخل باب زويلة، وفي سنة موته أخذ نور الدين دمشق، [بعد أن استعانوا على قتالهم بالإفرنج، وطمعت الإفرنج في أخذ دمشق] بعد أن ملكوا في السنـة الخاليـة قبلها عسقلان

---

(١) قال ياقوت الحموي: الرّها، مدينة بالجزيـرة بين الموصل والشام، معجم البلدان: ٣/ ١٢٠ (٥٨٣١).

وقويت شوكتهم، فأغاث الله دمشق وإقليمها بنور الدين، فضبط أمور دمشق، وحصَّن سورها، وبنى بها المدارس، وأبطل المكوس، وعاقب على شرب الخمر.

ثم تولى الفائز بنصر الله عيسى ولده، وعمره خمس سنين، فأقام [ست سنين] ونصف، ومات في سابع عشر رجب، سنة خمس وخمسين وخمس مئة، وبدولته وهى أمر المصريين، فكتب الخليفة المقتفي عهداً لنور الدين محمود بن زنكي، وولاّه مصر، وأمره بالمسير إليها، كما يأتي.

وفي أيامه تولى الوزارة الملك الصالح طلائع بن رزيك، الذي بنى الجامع خارج باب زويلة، والمشهد الحسيني بالقاهرة، وتولى الوزارة للفائز والعاضد، وكانا تحت حجره، إلى أن قُتل برمضان، سنة ست وخمسين، في خلافة العاضد، وكان السبب في قتله عمة العاضد؛ لاستيلائه على الأمور والدولة.

قال العماد[1]: لما قُتل الصالح كُسفت شمس الفضائل، ورخص سعر الشعر، وانخفض علَم العلم، ولم تزل مصر بعده منحوسة الحظ، مَنكوسة الراية، لم يكن مجلسه يُقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم

---

(١) قال الذهبي: العماد الكاتب، القاضي الإمام، العلامة المفتي، المنشئ البليغ، الوزير عماد الدين أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٣٤٥ (١٨٠).

الشرعية والأدبيــة، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولتــه، وكان شاعــراً يُحــب الأدب وأهله، ولكنــه كان [مفرط] العصبيــة في مذهب الإمامية.

ولما قُتل أُقيم في الوزارة ابنه رزيك، فقُتل بعــد سنة، فأُقيم بعده شاور، وهو الوزير المشؤوم على الفواطم، كالوزيــر ابن العلقمي على بني العباس، فإن هذا أطمع الإفرنج في أخذ الديار المصرية، فكان سبب زوالهم بالمرة، كما أن ابن العلقمي أطمــع التتار في أخذ بغداد، وقتل الخليفة المسعتصم[1]، فكان سبب زوالهم من بغداد وخرابها، كما يأتي.

[ثم تولى العاضد لدين الله عبدالله] بن يوسف ابن الحافظ، فأقام إحدى عشرة سنةً وستة أشهر، وكان وزيره شاور المذكور، ثم قتله صلاح الدين لموالاتــه الإفرنج، فاستــوزر العاضــد أسد الدين، فأقام شهرين ومات.

ثم استوزر صلاح الدين، فاستمر في الوزارة إلى أن مات العاضد في الحادي والعشرين من محرم، سنة سبع وستين وخمس مئة، بعد خلعه من ملكه بأيام، وبموته انقضت دولة الفاطميين الذين أفنوا أئمة مذاهب السنة قتلاً ونفياً وتشريداً، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة.

قال أبو شامة[2]: وقد أفردتُ كتاباً سميته: «كشف ما كان عليه بنو

---

(١) في المتن «المعتصم» والصواب «المستعصم» كما هو في كل كُتب التواريخ.

(٢) قال الذهبي: أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان، العلامة =

عبيد من الكفر والكذب والكيد»، وكُتب فيهم أيام الحاكم بأمر الله محضراً من علماء بغداد ورؤسائها، عام اثنين وأربعمئة، وفيه أنهم ليسوا من ولد علي بن أبي طالب، بل هم كفارٌ وفُسّاق وملحدون، وزنادقة مبطلون، وللإسلام جاحدون، عطّلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، وفيه ألفاظٌ من هذا طويلة.

قال [الرعيني][1]: أجمع العلماء بالقيروان أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة، لما أظهروا من خلاف الشريعة.

قال أبو الحسن القابسي[2]: إن الذين قتلهم عبيدالله وبنوه من العلماء أربعة آلاف رجل، ليردُّوهم عن الترضي عن الصحابة، فاختاروا الموت، ويا حبذا لو كان رافضياً فقط، ولكنه زنديق.

[وقال] الشيخ تقي الدين ـ ابن تيمية ـ في بعض تصانيفه: إن القاهرة بقي ولاة أمورها نحو مئتي سنة على غير شريعة الإسلام، وكانوا يُظهرون

= ذو الفنون، شهاب الدين أبو القاسم المقدسي ثم الدمشقي الشافعي، المقرئ النحوي الأصولي، صاحب التصانيف، معرفة القراء الكبار: ٢/ ٦٧٣ (٦٤١)، شذرات الذهب: ٧/ ٥٥٣.

(١) قال الذهبي: الرعيني، الإمام المحدث المُتقن الرّحّال، أبو موسى عيسى بن سُليمان الرعيني الأندلسي الرُّنْدِي، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٢ (١٥).

(٢) قال الذهبي: القابسي، الإمام الحافظ الفقيه، العلامة عالم المغرب، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي القابسي المالكي، سير أعلام النبلاء: ١٧/ ١٥٨ (٩٩).

أنهم رافضة، وهم في الباطن إسماعيلية ونصيرية وقرامطة وباطنية.

كما قال فيهم الإمام الغزالي في الكتاب الذي صنفه في الردِّ عليهم: ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض، والذين يوجدون في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والقدرية وأمثالهم من أتباعهم.

قال: ولما [كانوا ملوك] القاهرة كان وزيرهم مرة يهودياً ومرةً نصرانياً أرمنياً، وقويت النصارى بسبب ذلك النصراني الأرمني، فبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر، في دولة أولئك الرافضة والمنافقين، وكانوا ينادون بين القصرين: من لعن وسبَّ فله دينارٌ وإردب.

وكانوا من شرّ الخلق، فيهم قومٌ زنادقةٌ دهرية، لا يؤمنون بالآخرة، ولا جنة ولا نار، ولا يعتقدون وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج، وخير من كان فيهم الرافضة، والرافضة شرُّ الطوائف المنتسبين إلى القبلة.

قال: فبهذا السبب وأمثاله كان إحداث الكنائس بالقاهرة [وغيرها].

وقال: اتفق المسلمون على أن ما بناه المسلمون من المدائن لم يكن لأهل الذمة أن يُحدثوا فيها كنيسة.

وقال: من المعلوم المتواتر أن القاهرة بُنيت بعد عمر بن الخطاب بثلاث مئة سنة.

هذا كله كلام ابن تيمية، وإنما ذكرته لما فيه من الفوائد الفقهية في وجوب هدم كنائس القاهرة ونحوها على ولاة الأمور، ألا إلى الله تصير الأمور.

وكانت جملة مدة ولايتهم بمصر خاصة مئتي سنة وست سنين، وعدتهم أحد عشر نفراً، وكان ابتداء دولتهم بالمغرب سنة سبع وتسعين ومئتين، وانقراضهم بمصر سنة سبع وستين وخمس مئة، فمجموع مدتهم نحو مئتين وإحدى وسبعين سنةً، وقد طهَّر الله منهم البلاد، وأراح منهم العباد، ولله الحمد.

❒ ❒ ❒

[الدولة الأيوبية]

ثم جاءت الدولة الأيوبية الكردية السُّنِّيَّة:

أصحاب الفتوحات، الذين جدّدوا الخطبة للعباسيين بمصر، وهم أكرادٌ [مرادية]، وكانوا في خدمة تركي بن آق سنقر، ثم في خدمة نور الدين الشهيد محمود صاحب الشام، وهو الذي أرسلهم إلى مصر.

فأولهم [الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب] رحمه الله: قدم مع الملك نور الدين محمود بن زنكي، لما كتب له الخليفة المقتفي[1] العهد على البلاد الشامية والمصرية، ولقبه بالملك العادل، وأمره بالمسير إلى مصر، لمّا بلغه ضعف الدولة الفاطمية.

ففتح محمود بلاد الشام وانتزعها من أيدي الإفرنج، ثم أرسل محمود أسد الدين شيركوه في ألفي فارس، ومعه ابن أخيه صلاح الدين إلى مصر، فحاصرها نحو شهرين، فاستنجد صاحبها بالإفرنج.

وكان أسد الدين قد ملك إسكندرية، واستناب عليها صلاح الدين،

(١) في المتن «المتقي» والصواب أنه «المقتفي» كما هو ثابتٌ في كُتب التواريخ، وفي باقي نسخ الكتاب.

ثم ملك الصعيد، ثم صالحه شاور وزير العاضد الفاطمي عن الإسكندرية بخمسين ألف دينار، فأجابه لذلك، فتركها وعاد للشام.

[فاستحوذ] الإفرنج على القاهرة، بحيث كادوا يُخرجون المسلمين منها، وأخذوا مدينة بلبيس[1]، وقتلوا وأسروا، ثم راموا أخذ القاهرة، فأمر شاور الوزير بحرق مصر والنقلة للقاهرة، فالتهبت النار فيها أربعةً وخمسين يوماً.

فأرسل الخليفة العاضد الفاطمي يستغيث بنور الدين على الإفرنج، والتزم له بثلث خراج مصر، فحضر ومعه صلاح الدين، فهرب الإفرنج لمّا سمعوا بوصوله.

وقتل صلاح الدين شاور الوزير؛ لأنه كان [يمالىء] الإفرنج على المسلمين، وأُقيم أسد الدين مكانـه في الوزارة، ثم مات بعد شهرين، فأقام العاضد مقامه في الوزارة صلاح الدين، ولقَّبه بالملك الناصر، فقام بالسلطنة أتم قيام، وأجلى الإفرنج عن أرض مصر.

واستمر وزيراً للعاضد إلى أن مات، فتولى صلاح الدين السلطنة، وصار لمصر أميراً بعد كان وزيراً، فاستولى على القصر وخزائنه، فوجد فيه من الأموال ما لا يُحصى؛ من ذلك سبع مئة يتيمة من الجوهر، وقضيب زمرد طوله أكثر من شبر، وسمكه نحو الإبهام، إلى غير ذلك من خزائن

---

(١) قال ياقوت الحموي: بلبيس، مدينة بمصر على طريق الشام، فتحها عمرو ابن العاص ﷺ، معجم البلدان: ١/ ٥٦٧ (٢٠٩١).

الفواطم، ووجد خزانة كتب ليس في الإسلام نظيرها، تشتمل على ألفي ألف مجلد، منها بخطوط مصنفيها مئة ألف مجلد.

ثم أخذ صلاح الدين في نصر السُّنة، وإشاعة الحق، وإهانة [المبتدعة]، والانتقام من الروافض، وكانوا كثيراً بأرض مصر، وعزل قضاة مصر كلها؛ لأنهم كانوا كلهم شيعة، وقطع الأذان بـ: حيَّ على خير العمل.

وخطب للعباسيين بعد أن مهدها لهم أول جمعة في محرم، سنة سبع وستين، للمستضيء بأمر الله، ففرح المسلمون بذلك، ووهت البدعة، وصفت الشريعة، وأرسل الخليفة المستضيء الخِلع والألوية لصلاح الدين، ولقبه بخليل أمير المؤمنين.

ثم تجردت همة صلاح الدين للفرنج وغزوهم، فكان من أمره [معهم] ما ضاقت به التواريخ، فمكنه الله من الكفار، ويسَّر له فتوح البلاد، ففتح بلاد الشام كلها، واستنقذها من أيدي الإفرنج.

وفتح بيت المقدس يوم الجمعة، في الثالث والعشرين من شهر رجب، سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، بعد أن استولى الإفرنج عليه وعلى الخليل إحدى وتسعين سنةً.

وهدم ما أحدثوه من الكنائس، وبنى موضع كنيسةٍ منها مدرسة للشافعية، ولم يهدم القمامة، اقتداءً بعمر رضي الله عنه، وبنى خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، في سنة ست وستين، كانت داراً لسعيد السعداء الفاطمي،

وكذلك القمحية والشريفية بمصر.

وبنى القلعة بالجبل، وبئر الحلزون، وسور باب الوزير، والمدرسة [الصلاحية] بجوار الإمام الشافعي ﷺ، سنة تسع وستين وخمس مئة، وقدَّم السادة الشافعية على المذاهب، وبنى السور الأعظم المحيط بالقاهرة، سنة اثنين وسبعين، وسور باب البحر، وسور القلعة، سنة ست وسبعين وخمس مئة، وأبطل المكوس والمظالم.

وأخلى ما بين الشام ومصر من الإفرنج، ثم افتتح الحجاز واليمن، وتسلَّم دمشق بعد موت نور الدين، وحاصر الموصل، فدخلت تحت طاعته، وفتح عسكره طرابلس الغرب، وبرقة وتونس، وخطب بها لبني العباس، فصار سلطان مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب.

وما زال في الجهاد، ونشر العدل، وإبطال المظالم، وإجراء البر والمعروف، إلى أن توفاه الله تعالى، فلقد كان إماماً عادلاً، وسلطاناً كاملاً، لم يلِ مصر بعد الصحابة مثلُه، لا قبله ولا بعده، كان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن.

وكانت مجالسه منزهة عن الهزو والهزل، ومحافله حافلةٌ بأهل العلم والفضل، وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه، حسن العقيدة، كثير الذكر، محافظاً على الصلوات في الجماعات، وما وجبت عليه الزكاة؛ لأن صدقة التطوع استغرقت أمواله كلها.

وكان يُحب سماع القرآن، شديد الحياء، خاشع الطرف، رقيق

القلب، سريع الدمعة، راغباً في سماع الحديث ورحل بولديه الأفضل والعزيـز لسماع الحديـث، من السِلفي[1] بالإسكندرية، وهذا لم يُعهد لسلطان من زمن هارون الرشيد؛ فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع «الموطأ» من مالك بالمدينة.

وكانت مدة سلطنة صلاح الدين نحـو أربعٍ وعشرين سنةً، وتُوفي سابع عشري صفر، سنة تسع وثمانين وخمس مئة، بمحروسة دمشق، وعمره سبع وخمسون سنةً، وقبره بها ظاهرٌ يُزار.

ومات عن سبعة عشر ولداً ذكراً، ولـم يُخلف في خزائنه من الدراهم والدنانير سوى سبعة وأربعين درهماً لا غير، لا مُلكاً ولا بُستاناً ولا قرية، فالله تعالى يرحمه، فلو لم يكن لـه من الفضل إلا فتح بيت المقـدس، وقطـع دائرة الرافضـة الفاطميين من أرض مصر، لكان كافياً له عند الله تعالى، في رفع درجاته في الآخرة.

وقد قلت في ذلك:

لَعَمْــرِي رأيْــتُ المَــرْءَ بعــدَ زَوالِــهِ
حــديثاً بمــا قــدْ كــانَ يــأتي ويَــصْنَعُ

---

(١) قال الـذهبي: السلفي، الإمام العلامـة، المحـدث الحافـظ المفتي، شيخ الإسلام، شرف المعمرين، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد، ابن إبراهيم الأصبهاني الجرواني، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٥ (١).

فَحَيْــثُ الفَتــى لا بُــدَّ يُــذْكَرُ بَعْــدَهُ
فَــذِكْراهُ بالحُــسْنى أَجَــلُّ وأَرْفَــعُ

وكان ـ رحمه الله ـ يعتمد في أموره ومملكته على بهاء الدين قراقوش، وهو الذي قام في تدبير الأمر لصلاح الدين، وبنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما، وله آثارٌ دالةٌ على علوّ الهمة، والناس تنسب إليه أشياء موضوعة، لا أصل لها، رحمه الله تعالى.

ثم تولى الملك العزيز عثمان ولد صلاح الدين، وأُعطيت دمشق لأخيه الملك الأفضل علي، وحلب لأخيـه الملك الظاهر غياث الدين غازي، فأقام عثمان خمس سنين وعشرة أشهر، ووقع له مع إخوته أمور يطول ذكرها؛ لأنه كان أصغرهم.

وتُوفي في المحرم، سنة خمس وتسعين وخمس مئة، وعمره سبع وعشرون سنةً، ودُفن بداره بالقاهرة، ثم نُقل لتربة الإمام الشافعي قبل بناء القبة.

وكانت سيرته حسنةً، جاءه رجلٌ يسعى في قضاء الصعيـد بمال، فقال: لا أبيـع دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض، وسعى آخر في قضاء إسكندرية بأربعين ألف دينار، وحملها إليه، فلم [يقبلها].

ثم تولى الملك المنصور محمد ولد عثمان، وعمره تسع سنين، فأقام سنةً واحدةً وشهرين، وعُزل لصغره في حادي عشري شوال، سنة ست وتسعين وخمس مئة، وكان الكلام للعادل [عم] أبيه صاحب الشام،

ووقع له معه أمور كثيرة.

وحاصلها أن العادل خلع المنصور، وتسلطن عوضه، بعد أن جمع الفقهاء وقال لهم: هل تجوز ولاية الصغير؟ فقالوا: الصغير يولى عليه، فقال: أتجوز نيابة الكبير عنه؟ قالوا: لا؛ لأن الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة؟ فخلعه حينئذٍ.

ثم **[تولى الملك العادل سيف الدين أبـو بكـر] بن أيوب**، وكان يُدعى لـه ولولده الكامل معـه في الخطبـة، إلى أن تُوفي سابع جمادى الآخر، سنة خمس عشرة وست مئة، فكانت مدته نحو تسع عشرة سنةً، وكان مسعوداً في حركاته، وكان يصيف [بالشام]، ويشتي في مصر، وكان أكولاً يأكل وحده خروفاً مشوياً.

مات بالشام، فصبّره ولده، ثم حمله لدمشق فدفنه بالقلعة، وكان قد قسم البلاد بين أولاده، فجعل مصر للكامل محمد، ودمشق للمعظم عيسى، وديار بكـر وممالك الشرق للأشرف موسى، وباقي أولاده كل واحد في مملكة.

وكان ملكاً عظيماً، ذا رأي ومعرفة تامة، قد حنكته التجارب، حسن السيرة، جميل الطوية، وافر العقل، حازماً صالحاً، محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأرباب السنّـة، مائلاً للعلماء، صنف لـه الإمام فخر الدين الرازي[1] كتاب «تأسيس التقديس» وسيَّره إليه من بلاد خراسان.

---

(١) قال الذهبي: العلامة الكبير ذو الفنون فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين=

وفي أيامه ـ سنة سبع وتسعين وخمسمئة ـ وقع غلاء عظيم، بحيث هرب الناس للحجاز واليمن والشام والمغرب، وكان الرجل يذبح ولده، وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأحرق السلطان جماعةً فعلوا ذلك ولم ينتهوا.

وكان الرجل يدعو صديقه ليضيفه، فيذبحه ويأكله، وامتلأت الطرقات برمم الموتى، بحيث كفن السلطان في مدةٍ يسيرة مئتي ألف وعشرين ألفاً، وهلك أهل القرى قاطبة، بحيث إن المسافر يمرُّ بالقرية فيجد أهلها كلهم موتى، وبيع الرغيف بألف دينار.

وفي أيامه ـ سنة تسع وتسعين وخمسمئة ـ ماجت النجوم في السماء شرقاً وغرباً، وتطايرت [كالجراد المنتشر] يميناً وشمالاً، واستمر ذلك إلى طلوع الفجر.

وفي سنة تسع وتسعين أيضاً، خرج أهل مكة على عادتهم للعمرة، في سابع عشر رجب، وكان ملوكها يومئذٍ طائفة من بني حسن، يُقال لهم: الهواشم، فاغتنم الفرصة في ذلك اليوم الشريف قتادة بن إدريس، صاحب الينبع، جد حكام أشراف مكة الآن، ودخل مكة بجنوده، وكانت يومئذٍ مسوَّرة، وتمكَّن قتادة منها، واستمرت بيده ويد ذريته إلى يومنا هذا، ومضى أولئك لليمن.

= القرشي البكري الرازي الطبرستاني الأصولي المفسر، كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٥٠٠ (٢٦١).

وفي سنة أربع وستمئة انتقلت السلطنة من دار الوزارة بالدرب [الأصفر] إلى القلعة بالجبل، وأول من سكنها الكامل نائباً عن أبيه إحدى عشرة سنةً.

ثم تولى الملك الكامل المذكور محمد، ولد العادل، أبو الفتح ناصر الدين، فأقام عشرين سنةً وشهرين، وتُوفي في رجب، سنة خمس وثلاثين وست مئة بدمشق.

قال الذهبي: تملَّك الكامل نحواً من أربعين سنةً، شطرها في حياة أبيه، وهو الذي عمّر قبة الإمام الشافعي، وأجرى إليها الماء من بركة الحبش، والمدرسة بين القصرين، المعروفة بالكاملية، وهي دار الحديث، سنة إحدى وعشرين وست مئة، وله الأوقاف الجزيلة على أنواع البر.

وله المواقف المشهودة بدمياط، وانتزعها من أيدي الإفرنج بعد أن استولوا عليها وجعلوا جامعها كنيسة، وحضر لنصرته أخواه المعظم عيسى، والأشرف موسى، وبالغا في خدمته، وأنشده بعض الشعراء قصيدةً وفيها:

أَعُبّادَ عِيْسى إنَّ عِيْسى بِزَعْمِكُمْ

ومُوْسى جميعاً يَخْدُمانِ مُحَمَّدا

وأرسل إليه الخليفة المستنصر بالله بكتاب عظيم، فيه تقليده الملك، مع يوسف ابن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي(١)، فاستولى على البلاد،

---

(١) قال الذهبي: ابن الجوزي، الصاحب العلامة، أستاذ دار الخلافة، محيي=

واتسعت له المملكة، حتى قال خطيب مكة عند الدعاء له: سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها.

وكان معظِّماً للسنة وأهلها، وشهد في حادثةٍ عند قاضيه ابن عين الدولة[1]، فردَّ شهادته وقال: كيف أقبلك وعجيبة المغنية تطلع إليك بجنكها[2]، فشتم القاضي، فعزل القاضي نفسه، فقال الوزير: من الرأي عوده؛ لئلا يقال: لأي شيء عزل القاضي نفسه؟ وتطير الأخبار إلى بغداد، ويشيع أمر عجيبة، فأعاده.

ثم تولى الملك العادل ولده أبو بكر ولد الكامل، وعمره نحو ثماني عشرة سنةً، فأقام سنةً وشهرين وأياماً، وقيل: أكثر، وكان أخوه الصالح أكبر منه، وكان ببلاد المشرق، فتحرَّك طالباً للسلطنة منه، فقهره بعد حروب، وخلعه وسجنه سنة سبع وثلاثين وست مئة، وقتله بعد ذلك، وفي هذه السنة أوفى النيل خامس عشري أبيب[3]، ولم يقع مثله.

= الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي القرشي البكري الحنبلي، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٣٧٢ (٢٦٦).

(١) قال الذهبي: ابن عين الدولة، قاضي القضاة، شرف الدين أبو المكارم محمد ابن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي القاسم بن صدقة ابن الصفراوي الإسكندراني ثم المصري الشافعي، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ١٠٦ (٨١).

(٢) الجنك: آلة موسيقية مثل العود.

(٣) أبيب: من شهور السنة في التقويم القبطي المصري.

ثم تولى الملك أخوه نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، فأقام تسع سنين وعشرة أشهر وأياماً، إلى أن تُوفي بالمنصورة في حربه مع الإفرنج، في نصف شعبان، سنة سبع وأربعين وست مئة، وحُمل من المنصورة إلى القاهرة، ودُفن بقبةٍ بُنيت له بجوار المدرستين.

وجرت له مع الإفرنج حروبٌ يطول ذكرها، وأخذت الإفرنج دمياط في مرض موته، وأخفته شجرة الدُّرِّ، إلى أن أرسلت إلى ولده المعظم؛ خوفاً على المسلمين، وساست الناس أحسن سياسة.

والصالح هذا هو الذي بنى قلعة الروضة، وأقام بها جنداً ألفاً من مماليكه سمّاهم البحرية، وبنى قنطرة السد، والمدرستين بين القصرين، سنة تسع وثلاثين وستمئة.

وكان ملكاً مهيباً، عزيز النفس، طاهر اللسان والذيل، لا يرى الهزل والعبث، شديد الوقار، كثير التحيل والغضب والمؤاخذة والسطوة والتجبر، ذا همةٍ ومهابةٍ عظيمة، وهمةٍ عالية، وآمالٍ بعيدة، بحيث حدَّثته نفسه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها، والتغلب على الممالك، وانتزاعها من يد ملوكها.

وفي أيامه قدم الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى مصر، وتولى القضاء، فأمر ببيع الأمراء وأكابر الدولة محتجاً بأنه لم تثبت حريتهم، فراجعه السلطان في ذلك بالملاطفة، فصمم [على بيعهم]، فغضب نائب السلطنة، وأتى في عسكره لبيت الشيخ مجرداً سيفه ليقتله.

فلما وقع بصر الشيخ عليه دهش، ويبست يده، وبُهت الحاضرون حتى تابوا، واشتروا أنفسهم بأغلى ثمن لبيت المال، وله مع الملك الصالح وقائع، وترك بعد ذلك جميع المناصب والولايات، فكان يحضر السماع ويرقص رضي الله تعالى عنه.

ثم تولى الملك توران شاه ولده، أُحضر من حصن كيفا بديار بكر، ودخل المنصورة، سابع عشري ذي القعدة، تسلطن بعد موت أبيه بأربعة أشهر، وقاتل الإفرنج وأسرهم، وقتل منهم ثلاثين ألفاً.

وكان في عسكره عز الدين بن عبد السلام[١]، وكانت النصرة للإفرنج، فقال: يا ريح خذيهم عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الإفرنج فكسرتها، وغرق أكثرهم، ثم بعد ذلك أخذ يتوعد شجرة الدر بالمصادرة، ويهدد مماليك أبيه بالقتل، فعند ذلك قتل العسكر الملك المعظّم بعد شهرين، وداسوه بأرجلهم رحمه الله.

ثم تولت شجرة الدّر والدة خليل، سرية الملك الصالح؛ لحسن سيرتها، وجودة تدبيرها، وكان يُدعى لها على المنابر بعد الخليفة، فيقولون: اللهم احفظ الجهة الصالحة، ملكة المسلمين، وعصمة الدنيا والدين أم خليل.

---

(١) قال ابن العماد: شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام ابن أبي القاسم بن الحسن، الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء، السلمي الدمشقي ثم المصري الشافعي، شذرات الذهب: ٧/ ٥٢٢.

وكانت خيّرة ديّنة، رئيسة عظيمة في النفوس، ولها ومآثر وأوقاف على وجوه البر، قامت ثلاثة أشهر إلى أن خلعت نفسها في ربيع الآخر، سنة ثمان وأربعين وست مئة، وكان الخليفة المستعصم[1] أرسل يُعاتب أهل مصر في توليتها، وقال: إن كان ما بقي عندكم رجلٌ تولُّونه، فقولوا لنا نرسل لكم رجلاً تولُّونه.

ثم تولى الملك الأشرف موسى، جده الملك الكامل، وعمره نحو ثمان سنين، بجمادى الأولى، سنة ثمان وأربعين، وكان يُخطب له وللمعز أيبك التركماني معاً على المنابر؛ لأنه كان تولى قبله بخمسة أيام، ثم خلعه المعز، عام اثنين وخمسين وست مئة.

وفي سنة خلْعِهِ ظهرت نارٌ في أرض عدن، وكان يطير شَرَرُها في الليل إلى البحر، ويصعد منها دخانٌ عظيم في النهار، وكان هو آخر الدولة الكردية، وجملة ولايتهم إحدى وثمانون سنةً وسبعة عشر يوماً، رحمهم الله تعالى.

❏ ❏ ❏

(١) في المتن «المعتصم» والصواب «المستعصم» كما هو ثابت في كُتب التواريخ، وفي نسخة برلين.

[الدولة التركية]

ثم جاءت الدولة التركية مماليك الدولة الكردية:

في حدود سنة خمسين وست مئة.

فأولهم الملك المعز عـز الدين أيبك التركماني الصالحي: فأقام ست سنين، وتزوج شجرة الدر، ثم خطب بنت صاحب الموصل، فغارت شجرة الدر فقتلته في ربيع الأول، سنة خمس وخمسين وست مئة، ثم حدثت أمور أدَّت إلى قتلها، فقُتلت بأيدي مماليك المعز.

وهو الذي بنى المدرسة المعزية برحبة الحناء، وكان قـد استوزر الأسعد هبة الله، كان نصرانياً فأسلم، فأحدث ما أماته صلاح الدين من المكوس والمظالم، فكان شُؤماً على الأتراك، حيث عدلوا عن [وزارة] العلماء إلى ولاية الأقباط.

وفي أيامه ظهرت النار بالمدينة المنورة ولها دويٌّ عظيم، وصارت الجبال تسيل ناراً، وسارت هكذا وهكذا كأنها الجبال، وطار منها شررٌ كالقصر، إلى أن أبصر ضوءهـا من البلاد جميعها، واستمرت أكثر من شهر.

وأَحرقت المسجد النبوي بجميع ما فيه من منبر وشبابيك وخزائن وغيرها، وهي التي أخبر بها النبي ﷺ حيث قال: «لا تقومُ السّاعةُ حتّى تَخْرُجَ نارٌ من أَرْضِ الحِجازِ، تُضِيْءُ لها أعناقُ الإِبِلِ في بُصرى»[1].

ثم تولى الملك المنصور علي ولد المعز، وعمره نحو خمس عشرة سنة، فأقام سنتين وثمانية أشهر، ثم حُبس بأمر قطز المعزي؛ لصغره وعدم صلاحيته لقتال التتار، سنة سبع وخمسين وست مئة.

وفي أيامه أخذ التتار بغداد، بمكيدة الوزير ابن العلقمي الرافضي، وقُتل الخليفة المستعصم، ولم يُدفن، بل ذهب تحت حوافر الخيل، وقُتل معه فوق ألفي ألف، واستمر القتل ببغداد نحو أربعين يوماً، وانعدمت الخلافة الإسلامية منها، وأقام الناس بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة إلى أيام الملك المظفر الظاهر بيبرس، ثم رام التتار أخذ الشام ومصر، ولهم حكاياتٌ تطول.

ثم تولى الملك المظفر قطز المعزي، فأقام أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً، والتتار قد أقبلوا إلى حلب، وبذلوا السيف فيها، ثم إلى دمشق، ووصلت غارتهم إلى غزة، وظهر دين النصرانية بالشام، وذلَّ الإسلام، فلقيهم الملك المظفر بعين جالوت[2]، ومعه العساكر الشامية

---

(١) في البخاري (٧١١٨)، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز، تضيء أعناق الإبل ببصرى».

(٢) قال ياقوت الحموي: عين جالوت، بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس، من أعمال فلسطين، معجم البلدان: ٤/ ٢٠٠ (٨٧٠٦).

والمصرية، وكانت وقعة عظيمة، فكُسر جيش التتار، وهزمهم شرَّ هزيمة، ففرح المسلمون بذلك غاية الفرح.

وأحبَّ الناسُ الملك المظفر غاية المحبة، ثم قُتل بالطريق، بمكيدة الظاهر بيبرس، ليتولى مكانه، ودُفن بالقصير، من أرض الشام، في خامس عشر ذي القعدة، سنة ثمان وخمسين وست مئة ـ رحمه الله تعالى ـ، وَعَظُم على الناس قتله؛ لأنه نصر الإسلام، وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً حازماً، حسن التدبير عارفاً.

ثم تولى الملك الظاهر، ركن الدنيا والدين؛ بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، صاحب الفتوحات، فأقام سبع عشرة سنة وشهرين ونصفاً، وتوفي بالقصر بدمشق، سابع عشري المحرم، سنة ست وسبعين وست مئة، وقبره بدمشق ظاهرٌ يُزار، وكان ملكاً شُجاعاً مقداماً، غازياً مجاهداً، سريع الحركة، يُباشر الحروب بنفسه، له الوقائع الهائلة مع الإفرنج ثم التتار.

وهو الذي بنى المدرسة بالقاهرة تجاه البيمارستان، سنة اثنين وستين وست مئة، والجامع الكبير بالحسينية، سنة خمس وستين وست مئة، وتمَّ في سنة سبع، وقناطر أبو منجا بالقليوبية، وقناطر السباع بطريق مصر، وغير ذلك من حصونٍ وقلاع، وقناطر وخانات بالشام وغيرها، وهو الذي كمّل عمارة المسجد النبوي من الحريق، وحج سنة سبع وستين، فغسّل الكعبة بيده بماء الورد.

وله فتوحاتٌ كثيرة؛ فتح النوبة ودنقلة[1]، ولم تُفتح قبل ذلك في الإسلام مع غزو كثيرٍ من الخلفاء والسلاطين لها قبله، وملك الروم، وجلس بقيسارية ولبس التاج، وضُرب باسمه الدينار والدرهم، وكان له صدقاتٌ وأوقافٌ كثيرة، وجدَّد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر، وجامع الحاكم، ووقع بينه وبين الإمام النووي[2] ـ رحمه الله ـ بعض شيء، فأمر بنفيه من دمشق، ثم أمر بعوده.

وفي أيامه طيف بالمحمل وكسوة الكعبة بالقاهرة.

وفي أيامه قدم خليفة بغداد المستنصر بالله ابن الظاهر بأمر الله هارباً من التتار، فخرج السلطان الملك الظاهر للقائه، وكان يوماً مشهوداً، وأول من بايعه بالخلافة عز الدين بن عبد السلام، والملك الظاهر، ثم أن الخليفة قلَّد الملك الظاهر أمور البلاد الإسلامية وما سيفتحه الله.

ثم طلب الخليفة من الملك الظاهر أن يجهزه إلى بغداد، فجهزه بأكثر من ألف ألف دينار، وخرج لوداعه إلى دمشق، ثم قتله التتار بعد مفارقة الظاهر إياه، فرجع الخليفة الحاكم بأمر الله ابن المسترشد بالله إلى مصر، فتلقاه الملك الظاهر وأكرمه، وكان في الملك الظاهر محاسن

---

(١) قال ياقوت الحموي: دنقلة، «وسماها دمقلة»، مدينة كبيرة في بلاد النوبة، وهي منزلة ملك النوبة، على شاطئ النيل، معجم البلدان: ٢/ ٥٣٥ (٤٨٧١).

(٢) قال ابن العماد: النووي، شيخ الإسلام، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، الفقيه الشافعي، الحافظ الزاهد، أحد الأعلام، النووي الدمشقي، شذرات الذهب: ٧/ ٦١٨.

وغيرها، ولقبه الخليفة بقسيم أمير المؤمنين، وهو أعلى الألقاب، وقال: هذا الملك الظاهر قد قام بنصرة [الإمامة] عند قلة الأنصار، وشرَّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار.

وفي أيامه ـ سنة ثلاث وستين وست مئة ـ جعل القضاة أربعة، من كل مذهب، ولم يكن ذلك قبله في الإسلام، غير أنه في بعض أيام الفواطم قرروا مع قاضيهم أربعة، قاضي مالكي وشافعي وإسماعيلي وإمامي، ثم أبطلوا تعدادهم، واقتصروا على قاضٍ واحد على مذهب الإسماعيلية.

وكان مبدأ تعدادهم في أيام الظاهر من قاضيه تاج الدين ابن بنت الأعز[1]؛ فإنه استناب عنه نفسه أربعة نواب من المذاهب الأربعة بإذن الظاهر له في ذلك؛ توسعةً على الناس، ثم بعد ذلك جعل الظاهر الثلاثة الآخرين نُوّاباً عنه، مع بقاء القاضي الكبير ونائبه، قال الناظم:

وَهْوَ الَّذِي صَيَّرَ فِي مِصْرَ القُضَاهْ
أَرْبَعَةً كُلٌّ دُعِيْ قاضِي الْقُضَاهْ

وبسبب ذلك: توقَّف القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز عن تنفيذ كثيرٍ من الأحكام، وتعطَّلتْ الأمور، ولمّا جعل القضاة الأربعة، أنشد بعضهم، قيل هو ناظم البردة البوصيري:

---

(١) قال ابن العماد: ابن بنت الأعز، قاضي القضاة، تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن بدر العَلامي المصري الشافعي، صدر الديار المصرية ورئيسها، شذرات الذهب: ٧/ ٥٥٥.

لقــدْ سَــرَّنا أنَّ القُــضاةَ ثَلاثَــةٌ
لأنَّــكَ تــاجَ الــدِّيْنِ للقَــوْمِ رابِــعُ
بِهِـمْ بُنْيَـةُ الإسـلامِ صَـحَّتْ وكيـفَ لا
تَــصِحُّ وهُــوْ أَرْكانُهــا والطِّبــائِعُ
فَكَــمْ رُخَــصٌ أَبْــدَوْا لنــا وعَــزائِمٌ
هُــدِيْنا بِهــا وَهْــيَ النُّجُـومُ الطَّوالِـعُ
فـلا تَبْتَـئِسْ إذْ وَسَّـعَ اللهُ فـي الْهُـدى
مَــــذاهِبَنا بــــالعِلْمِ واللهُ واسِــــعُ
تَفَرَّقَــــتِ الآراءُ والــــدِّيْنُ واحِــــدٌ
وكُــلٌّ أتــى رَأْيــاً مِــنَ الْحَــقِّ راجِــعُ
فهــذا اخْــتِلافٌ جَــرَّ للنّــاسِ راحَــةً
كما اخْتَلَفَتْ فـي الـرّاحَتَيْنِ الأصابِـعُ

ولما مات تاج الدين هذا، رآه الظاهر بيبرس في نومه بعد موته، فسأل عن حاله فقال: لم أجد أشد عليّ من جعلي القضاة أربعة، وقيل لي: قد فرّقت الكلمة.

ومن حسنات تاج الدين ابن بنت الأعز هذا: أنه كانت جرت العادة من عهد طروق التتار أنه يُؤخذ من أملاك الناس في كل سنةٍ أجرة شهرين، فقام تاج الدين في أيام وزارته في ذلك حق قيام، حتى أبطله، فبطل عن

بلاد مصر إلى الآن.

ومن محاسن الظاهر: أنه كان قد أمر بإراقة الخمور، وإبطال المفسدات والخواطئ، وإسقاط المكوس، وشدّد في أمر الخمر، وهدَّد من يعصرها بالقتل، وأسقط الضمان في ذلك، وكان [له في] كل يوم ألف دينار بالقاهرة وحدها، وسارت كتبه بذلك في الآفاق.

قال الذهبي: كان الظاهر خليقاً بالملك، لولا ما كان فيه من الظلم، قال: والله يرحمه؛ فإن له يداً بيضاء في الإسلام، ومواقف مشهودة، وفتوحات معدودة، وكان قد أراد هدم أبنية القرافة كلها، لكونها مدافن الموتى، وأفتاه العلماء على لسانٍ واحد: أنه يجب على ولي الأمر هدم ذلك كله، ثم شغله سفره للشام للجهاد، فمات به رحمه الله تعالى، وسيرته ووقائعه مما تحتمل مجلدات، سامحه الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثم تولى الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة الله ولد الملك الظاهر، وعمره ثماني عشرة سنة، إلى أن خُلع وجلس بالكرك، فمات بها سابع عشري ربيع الآخرة، سنة ثمان وسبعين وستمئة، وكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر، وكان الأفرم نائبه في أموره.

وكان السعيد سلطاناً جليلاً، كريماً عادلاً محسناً، لا يردُّ سائلاً، متواضعاً بشوشاً، حسن الأخلاق، ليس [في] طبعه عنف ولا ظلم، كثير الشفقة، محباً لفعل الخير، قليل الحجاب، يتصدى للأحكام بنفسه.

ولما مات بالكرك سنة ثمان وسبعين، وجد الناس عليه كثيراً،

وعُمل عزاؤه بسائر البلاد، وخرجت الخوندات[1] حاسرات، وأسمعن الملك المنصور قلاوون الكلام القبيح من سبٍّ وغيره وهو لا يتكلم، ونُسب إليه أنه اغتاله بالسم، ووجدت عليـه زوجته بنت قلاوون وجداً عظيماً، ولم تزل باكيـةً عليـه حزينة، لم تتزوج بعده إلى أن ماتت سنة سبع وثمانين.

ثم تولى الملك العادل أخوه بدر الدين سلامش، وعمره نحو سبع سنين، وكان يُدعى له ولقلاوون في الخطبة، فأقام مئة يوم، وعُزل في العشرين من رجب في السنة المذكورة، وأُرسل للكرك عند أخيه خضر، ثم أُحضر للقاهرة، وبقي بها خاملاً ذكره إلى أيام الملك الأشرف خليل ولد قلاوون، فجهزه مع أخيه خضر إلى [القسطنطينية] إلى أن مات بها.

❐ ❐ ❐

---

(١) الخوندات، جمع خونده، وهو لقب خاص بنساء دار السلطنة.

[الدولة القلاوونية الصالحية]

ثم جاءت الدولة القلاوونية الصالحية:

وهي من الدولة التركية المتقدمة.

فأولهم الملك المنصور أبو المعالي قلاوون الصالحي النجمي: الألفي؛ لأنه أُشْتُري بألف دينار، فأقام إحدى عشرة سنةً وشهرين ونصف، وتُوفي بالقرب من المطرية[1] عند خروجه على نية الجهاد، في سادس ذي القعدة، سنة تسع وثمانين وستمئة.

وكان سلطاناً كريماً حليماً، شجاعاً مقداماً، عادلاً، عفيفاً عن سفك الدماء، مائلاً إلى فعل الخير، والأمر بالمعروف، وفي أول أمره خرج عليه سنقر الأشقر، وتسلطن بدمشق، وخُطب له بالشام، ثم وقع الصلح على التتار بعد أمورٍ طويلة.

وهو الذي بنى البيمارستان في سنة إحدى وثمانين وستمئة بالقاهرة، وجعله مباحاً للفقير والأمير، والمدرسة المنصورية، والقبة التي [دُفن]

(١) قال ياقوت الحموي: المطرية، من قرى مصر، يُقال إن المسيح عليه السلام اغتسل فيها، معجم البلدان: ٥/ ١٧٤ (١١٣٤٣).

بها، وله المشاهد الحسنة، والفتوحات بساحل البحر الرومي[1]؛ منها طرابلس، كانت في أيدي الإفرنج، من سنة ثلاث وخمس مئة، وعكا وبيروت وصيدا وغير ذلك، وبلغت مماليكه اثني عشر ألفاً.

وفي أيامه وصل عسكر التتار إلى الشام، وحصل الرجيف والخوف، فالتقاهم بعساكره، وهزمهم شر هزيمة، وحصل مقتلةٌ عظيمة.

ثم تولى الملك الأشرف صلاح الدين خليل ولده، فأقام ثلاث سنين وشهرين، ثم خرج للبحيرة للصيد، فقتله الجند بغتةً هناك شهيداً، وأُدخل السيف في دبره وشُق إلى أعلاه، وتُرك طريحاً ثالث عشري شهر المحرم، سنة ثلاث وتسعين وست مئة، ونُقل لتربته التي أنشأها بجوار المشهد النفيسي، قرب السيدة نفيسة، ثالث عشري صفر، سنة تاريخه.

وكان ملكاً شجاعاً مقداماً، لا يُعرف من ملوك الترك من يدانيه في الشجاعة، بديع الجمال، عليه رونق الحسن، وهيبة السلطنة، صاحب سطوة، قوي البطش، تخافه الملوك في أمصارها، والوحوش العادية في آجامها.

وفي أيامه توجَّه فحاصر عكة وفتحها، وغالب سواحل الشام، وافتتح قلعة الروم بهنسا ومرعش، وفتح حصن صور، وكان من أحصن الأماكن، بحيث عجز عنه السلطان صلاح الدين، ومن يومئذ قطع دابر الإفرنج من سواحل الشام، وصار أمرهم في إدبار، فالله يرحمه. آمين.

---

(١) البحر الرومي: وهو البحر الأبيض المتوسط اليوم.

ثم تولى الملك الناصر محمد أخوه ابن قلاوون، وعمره تسع سنين، فأقام سنةً واحدة، ثم خُلع لصغره، في شهر المحرم، سنة أربع وتسعين وستمئة، وأُرسل للكرك[1].

ثم تولى الملك العادل كتبغا، وأصله من سبي التتار، واستقر بلاجين نائباً، فأقام سنتين، ثم خُلع وهو بالشام، في شهر محرم، سنة ست وتسعين وست مئة، لما توجه لها ومهَّدها، ثم رجع، فلما وصل وادي فحمة خرج عليه لاجين، فقتل خواص جماعته، فهرب إلى دمشق، ودخل القلعة، فأحاط لاجين على الخزائن والجيش، وكان كتبغا ملكاً خيراً، ديناً عاقلاً، رحمه الله.

ثم تولى الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، الذي كان نائباً عن كتبغا وخلعه، وولاه نيابة صرخد، فأقام لاجين في السلطنة سنتين وسبعة وأربعين يوماً، إلى أن قُتل ليلة الجمعة بعد العشاء بغتةً وهو يلعب الشطرنج، حادي عشر ربيع الآخر، سنة ثمان وتسعين وست مئة، ودفن بالقرافة.

وكان ملكاً شجاعاً مقداماً، عارفاً عاقلاً وقوراً، معظَّماً في الدول، وهو الذي وقف الأوقاف على جامع طولون، وجعل فيه درس تفسير وحديث وفقه على المذاهب الأربعة، وقراءات وميقات وطب، وهي

---

(١) قال ياقوت الحموي: الكرك، قلعة حصينة جداً في طرف الشام، من نواحي البلقاء في جبالها، معجم البلدان: ٤/ ٥١٤ (١٠٢١٥).

مستمرةٌ إلى الآن.

وقد وُلِّيْتُ تدريسه الفقه الحنبلي، فكنت أُظلم في قبض الاستحقاق من بين سائر المدرسين، بسبب ظلم مباشرة القاضي أحمد النوبي، مع أن الواقف شرط التسوية بينهم، هذا مع مزيد احتياجي، وتعدي نفعي، فقهاً وتدريساً وتصنيفاً، بخلاف غيري، وفي الحديث: «لا تقومُ السّاعَةُ حتّى يَكُونَ أَسْعَدُ النّاسِ بالدُّنْيا لُكَعَ ابْنَ لُكَعٍ»[1] رواه إمامنا أحمد والترمذي.

وكان قبل ذلك أُمـر الأشرف خليل بخنقـه فخنق، ثم عادت فيـه روحه، حتى أراد الله له ما وعده به من الملك، وكان قد نذر إن نجاه الله ليعمرنَّ جامع ابن طولون، وكان مختفياً بمنارته فنجاه الله تعالى وتسلطن.

وفي أيامه أبطل الثلج الذي كان يُنقل من الشام إلى مصر، وأبطل المكوس.

ثم عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعمره خمسة عشرة سنة للسلطنة ثانياً، وتعطلت السلطنة واحداً وأربعين يوماً، إلى أن حضر إلى القلعة، سادس شهر جمادى الأولى، سنة ثمان وتسعين وست مئة، فأقام عشر سنين وستة أشهر.

وفي أول ولايته ـ سنة تسع وتسعين وستمئة ـ قدم غازان ملك التتار في مئة ألف إلى دمشق، فخرج الناصر لقتاله في نحو عشرين ألف، فانهزم عسكر النـاصر، وقُتل جماعـةٌ من الأمراء، ومَلك غازان دمشق ما خلا

---

(١) رواه أحمد (٢٢٠٩)، والترمذي (٢٣٣٥١).

قلعتهـا، وخُطب لـه بدمشق، وجعل نيابـة دمشق لقبجق، وقاسى أهل دمشق شدائد من التتار.

ثم أخذ الناصر والأمراء في التجهيز لقتال التتار، بعـد أن جاءهم الشيخ ابن تيمية على البريد، وحثهم على ذلك، فجاء الخبر بعود غازان لبلاده، وحضر قبجق للناصر طائعاً، ثم بعد ذلك عادت التتار ثانياً، فخرج لهم الناصر وقاتلهم فهزمهم أقبح هزيمة، وقُتل قطلوشاه مقدم التتار.

وكان في عسكر السلطان الشيـخ ابن تيميـة، وظهر من شجاعتـه ما لا يوصف، ولما اشتد القتال قال السلطان: يا خالد بن الوليد! فقال له الشيخ: قل: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، فحصل النصر للمسلمين، ومن يومئذ انكسر شر التتار، وصار أمرهم في إدبار.

وفي تلك الولايـة ـ في شعبان، سنة سبع مئة ـ أُمر اليهـود بمصر والشام بلبس العمائم الصفر، والنصارى بلبس الأزرق، ثم عوَّل الناصر على الحج في شهر رمضان، سنة ثمان وسبع مئة، وخرج [إلى] الكرك.

وأرسل يُخبر الأمراء أنـه أقام بها، ورجع عن السلطنة لما قصرت يده في مملكته بوجود سلار وبيبرس؛ لأنه كان معهما كالمحجور عليه، وكان ذلك تدبيراً منه، وذلك في عاشر شوال، سنة ثمان وسبع مئة.

فولوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجـاشنكير المنصوري، أستادار الناصري المذكور، ويُعرف بالعثماني، قلده الخليفة السلطنة، وألبسه الخلعة السوداء والعمامة المدورة، وذلك بإشارة سلار، وجلس

على تخت المُلك وهو يبكي، فأقام أحد عشر شهراً، بعد أن خلع على الأمراء ألفين ومئتين خلعة.

وأرسل [يتعرض] للناصر ويطالبه بما كان معه من الأموال والذخائر، والناصر يعتذر فلا يقبل منه، فضاق صدره، وأرسل لمماليك أبيه؛ نائب دمشق وحلب وطرابلس وصفد، فأجابوه.

ثم طلب الملك الناصر السلطنة، وبايعه جماعةٌ من الأمراء، فاستدعى بيبرس الشيخ زين الدين ابن المرحَّل[1]، والشيخ شمس الدين بن عدلان[2] واستشارهما، فأشارا عليه بتجديد العهد من الخليفة، وتحليف الأمراء، ففعل ذلك، وكتب له الخليفة العهد، وحث فيه [الجند] على قتال الملك الناصر خوف شق العصا على المسلمين، وتفريق كلمتهم.

ثم إن الملك الناصر عاد من الكرك إلى دمشق، فانتظم أمره، ثم توجه إلى مصر بالعساكر، فخلع بيبرس نفسه، وهرب إلى الصعيد، وأرسل يقول للناصر: إنني خلعت نفسي من المُلك، فإن حبستني عددت ذلك خلوة، أو نفيتني عددت ذلك سياحة، أو قتلتني كان ذلك شهادة،

---

(١) قال ابن العماد: ابن المرحل، الشيخ العلامة ذو الفنون، صدر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر بن مكي بن عبد الصمد بن عطية الشافعي العثماني، المعروف بابن المرحل وبابن الوكيل، شذرات الذهب: ٨/ ٧٤.

(٢) قال ابن العماد: ابن عدلان، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان بن محمود بن لاحق، المعروف بابن عدلان الكناني المصري، شيخ الشافعي، شذرات الذهب: ٨/ ٢٧٩.

فعفا عنه، وولاه نيابة صهيون[1].

فخرج بيبرس ولم يحضر إلى السلطان، فشقَّ ذلك عليه، وأرسل الناصر خلفه من أحضره من قرب غزة، ثم أخذ يوبخه ويعُدد له ذنوبه، ثم أمر بخنقه، في سادس شهر رمضان، وقيل شوال، سنة تسع وسبع مئة، ودفنه بمدرسة البيبرسية.

وبيبرس هـذا هو الذي عمّر المدرسة البيبرسية بالدرب الأصفر، داخل باب النصر، موضع دار الوزارة، سنة سبع وسبع مئة، والشباك الكبير الذي بها كان بدار الخلافة ببغداد، وكانت الخلفاء تجلس إليه، وأمر الناصر بغلقها، ثم أمر بفتحها، وهو الذي جدد الجامع الحاكمي بعد الزلزلة.

وأخذ الناصر يعاقب سلار ليُظهر ماله، ففتح سرداباً تحت الأرض، فأخرج منه [سبائك] ذهب وفضة، وعدة جُرب في كل جراب عشرة آلاف دينار، وحملوا من ذلك السرب أكثر من خمسين بغلاً من الذهب والفضة، ثم أخرج من موضع آخر سبعاً وعشرين خابية من ذهب، ومن الجواهر شيئاً كثيراً، وأخرج ألف حياصة[2] مجوهرة بالفصوص، وألفي قلادة من الذهب.

---

(١) قال ياقوت الحموي: صهيون، حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام (البحر المتوسط) من أعمال حمص، معجم البلدان: ٣/ ٤٩٦ (٧٦٨٧).

(٢) الحياصة: رباط يشد به الحزام حول سرج الفرس.

ثم حبسه الناصر حتى مات جوعاً، فأكل ساق خُفِّه، ووُجد عاضّاً على السرموجة[1]، وكان في شونته[2] يوم موته من الغلال ما يزيد على أربع مئة ألف أردب.

قال ابن الجزري: وجد لسلار بعد موته ـ غير ما أخذ منه في حياته ـ من الذهب ثمانمئة ألف ألف دينار، غير الجواهر والحلي والخيل والسلاح، وأنكر الذهبي ذلك، وقال: هذا كالمستحيل.

ولما عاد [الملك] الناصر محمد بن قلاوون ثالثاً للسلطنة سنة تسع، واستقر أمره بها، شرع يُعاتب الناس في أمره، فقال للخليفة: هل أنا خارجي، وبيبرس من سلالة العباس؟ وقال للقاضي علاء الدين الذي كتب العهد: يا أسود الوجه، وقال للقاضي بدر الدين بن جماعة[3]: كيف تُفتي المسلمين بقتالي، وعزله عن القضاء، ووبخ ابن المرحل، وجاء ابن عدلان يستأذن، فقال الناصر للدوادار: قل له: أنت أفتيت أنه خارجي، وقتاله جائز، ما لك عندهُ دخول.

وأرسل فأحضر شيخ الإسلام ابن تيمية من حبسه بالإسكندرية، وكان قد سعى فيه ابن عدلان وغيره، فاستفتى الناصر ابن تيمية ليعمل

(١) السرموجة: مثل الجورب من الجلد، يُلبس فوق الخف في القدم.

(٢) الشونة: مخزن الحبوب والغلال.

(٣) قال ابن العماد: ابن جماعة، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، بدر الدين محمد ابن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، شذرات الذهب: ٨/ ١٨٤.

فيهم بفتياه، فنهاه ابن تيمية وقال: إنك إن عدمت هؤلاء لم تلق خيراً منهم، مع أنهم كانوا قد سعوا في حبس ابن تيمية عند بيبرس، وسجنوه في القلعة، وبحبس الديلم، وبإسكندرية، فكان ابن عدلان يقول: لم نر أفتى من ابن تيمية، لم نُبق ممكناً في حقه، ولما قدر هو عفا.

ثم لما جلس السلطان وعنده العلماء وقضاة مصر والشام، دخل الوزير وأنهى أن أهل الذمة بذلوا للديوان في كل سنةٍ مئة ألف دينار، على أن يعودوا للبس العمائم البيض، فسأل السلطان العلماء في ذلك فسكتوا.

فقام ابن تيمية، وردَّ على الوزير مقالته، وزجر السلطان فأصغى إليه، ولم يظفر أهل الذمة بمرادهم، ثم فُعل ذلك بهم في بغداد، اقتداء بالناصر ملك مصر، وهذا من حسنات ابن تيمية.

واستمر الملك الناصر في السلطنة وتمكَّن منها، فعمّر الجامع الجديد بمصر عام اثني عشر وسبع مئة، والقصر بالقلعة سنة أربع عشرة، وجامع القلعة سنة ثمان عشرة، والمدرسة بين القصرين سنة ثلاث وسبع مئة في سلطنته الثانية، وسافر إلى الحجاز الشريف بالركب سنة تسع عشرة.

وحفر الخليج الناصري المتوصل إلى خانقاه سرياقوس، لما بنى بها الخانقاه سنة خمس وعشرين وسبع مئة، فحُفر في شهرين، وعمّر عليه القناطر، وكذلك القناطر بالجيزة، وغير ذلك من ميادين وقصور وجوامع، وعزم على أن يُجري النيل تحت القلعة، فقيل له: إنه يحتاج إلى ثلاث خزائن من المال، ولا يُدرى هل يصح أو لا؟ فرجع عن ذلك.

وفي أيامه كثرت العمارة من قبة الشافعي إلى باب القرافـة، وزيد في مباني القاهـرة مقدار نصفها، وطالت أيامـه، وتمَّ سعـده، وأطاعته البلاد والعباد، وسافر ـ أيضاً ـ بالركب للحجاز الشريف عام اثنين وثلاثين وسبع مئة.

وفي أيامه حدث التذكير يوم الجمعة؛ ليتهيأ الناس للصلاة.

وفي أيامه انقطعت الخطبة للخلفاء العباسيين، واكتُفي بمجرد اسم السلطان إلى يومنا هذا، وذلك أنه في سنة ست وثلاثين وسبع مئة قبض على الخليفة واعتقله بالبرج، ومنعه من الاجتماع بالناس، ثم نفاه في سنة سبع إلى قوص، هو وأولاده وعيالهم، وكانوا قريباً من مئة نفس.

وسببه أنه رفُع إليه قصة عليها خط الخليفة: يحضر السلطان لمجلس الشرع الشريف.

وكان في طول مدة حبسه ونفيه يُخطب له على المنابر، فلما مات عهد إلى ابنه أحمد بالخلافة، فلم يرض السلطان، وبايع إبراهيم ابن أخيه، وهو الذي كان يمشي بين عمه الخليفة وبين السلطان بالنميمة.

وكان غير صالح للخلافة لأمورٍ قبيحةٍ يتعاطاها، فقام قاضي القضاة ابن جماعة في صرف رأي السلطان عن إقامـة الخطبة باسم إبراهيم فلم يفعل، فاتفق الرأيان على ترك الخطبة للاثنين، واكتفي فيها بمجرد اسم السلطان، ومن هناك انقطعت الخطبة للخلفاء، والدعاء لهم على المنابر كافة.

وكانت وفاة الملك الناصر محمد يوم الأربعاء، تاسع عشر ذي الحجة، سنة إحدى وأربعين وسبع مئة، ودُفن على والده بالقبة المنصورية، فكانت مدته الأخيرة اثنين وثلاثين عاماً وسبعة أشهر ونصف شهر، فصارت جملة ولايته أربعاً وأربعين سنةً وخمسة عشر يوماً، ولم يبلغ مدته أحد من سلاطين مصر، لا قبله ولا بعده، وما ألطف قول بعضهم في موته:

قُلتُ لِبَدْرِ الأُفْقِ لمّا بَدا
ووَجْهُهُ مُنْكَسِفٌ باسِرُ
ما لكَ لا تُسْفِرُ عَنْ بَهْجَةٍ
فقالَ ماتَ المَلِكُ النّاصِرُ

وكان ملكاً عظيماً، مُطاعاً مهيباً، ذا بطشٍ ودهاء، وحزمٍ شديد، وكيدٍ [مديد]، ذكياً عاقلاً، كريماً شجاعاً، لا يُحب الظلم، ويتروى في الأمر إذا أراد فعله، وكان يصبر الدهر الطويل على الإنسان وهو يكرهه.

هادته الملوك وراسلته، وكان كلما بعُد الإنسان عن بلاده وجد مهابته أكثر، ومكانته أكبر، وعندما انتهت سعادته، وخُطب له بالروم، وضُربت الدراهم والدنانير باسمه ببغداد، أدركته المنية، فسبحان من لا يدوم إلا ملكه.

ويُقال وُجد بخطه ما صورته: أرزاق الفقهاء صدقة أموال الظلمة، مكدرة بشروط الواقفين، منغصة بمنن النظار والمباشرين، من باشرها

أكلها صدقة، ومن لم يُباشرها أكلها حراماً، وكتبه محمد بن قلاوون.

وترك عدة بنين، تولَّوا السلطنة بعده.

[فتولى الملك المنصور أبو بكر ولده]، وأنشده بعض الشعراء:

إذا النّاصِرُ السُّلطانُ راحَ لِرَبِّهِ
[فَلِلَّهِ] منْهُ قائِمٌ بِمُهَنَّدِ

وقدْ عَقَدَ الإسلامُ إجْماعَهُمْ على
أبي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ بعدَ مُحَمَّدِ

فأقام شهرين وأياماً، وخُلع في العُشر الأخير من صفر، عام اثنين وأربعين لفساده، وشربه الخمور، حتى قيل إنه جامع زوجات أبيه، ونُفي هو وإخوته إلى قوص، وتهتكت حريم أبيه الناصر، وكثر البكاء والعويل بالقاهرة، ثم قُتل بقوص، وكان ذلك مجازاةً [لما فعله والده] بالخليفة.

[ثم تولى الملك الأشرف كجك] أخوه، وعمره ست سنين، فأقام ثمانية أشهر، والأمر في دولته لقوصون وبشتك، فعزلوه، وتُوفي بقوص بعد أربع سنين.

ثم تولى الملك الناصر أحمد أخوه، وكان مقيماً بالكرك، فحضر إلى مصر في عاشر شوال، عام اثنين وأربعين وسبع مئة، وكان الذي عقد المبايعة بينه وبين الخليفة، الشيخ تقي الدين السبكي(١)، فأقام في الملك

---

(١) قال ابن العماد: السبكي، الإمام تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي =

في مصر أربعين يوماً، وظلم الناس، وعسف بهم.

ثم بدا لـه أن يترك مصر، ويقيم في الكرك، ففعـل ذلك، وأخـذ الأموال، وكاتبوه في القدوم فأبى، فأجمعوا على خلعه، فخُلع وهو بها، ثم قُتل سنة خمس وأربعين.

ثم تولى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل أخوه أبو الفدا، فأقام ثلاث سنين وشهرين وخمسة عشر يوماً، إلى أن تُوفي رابع ربيع الآخر، سنة ست وأربعين وسبع مئة، وعمره نحو العشرين سنةً، وهو الذي وقف يبسـوس وسنـدبيس على كسوة الكعبـة، وكـان في أول ولايتـه أرسل لمحاصرة أخيه بالكرك، فجز رأسه في سنة خمس، وأُتي به إليه.

ثم تولى الملك الكامل شعبان أخوه، فأقام سنةً وشهراً وسبعة عشر يوماً، فأساء السيرة، ثم خُلع وحُبس مكان أخيه أمير حاجي، وأُخرج أمير حاجي وتسلطن، فجلس على سماط شعبان، وتغذى شعبان مما عُمل لأمير حاجي بالحبس، ثم بعد ذلك قُتل.

ثم تولى المظفر حاجي أخوه، فأقام سنةً وثمانية أشهر، ثم خُلع وذُبح في ثاني عشر شهر رمضان، سنة ثمان وأربعين وسبع مئة، وكان سيء التدبير، قبيح السيرة، يؤثر صحبة الأوباش على أرباب الفضائل.

ثم تولى الملك الناصر حسن أخوه، وعمـره إحدى عشرة سنةً،

= ابن علي بن تمـام، السبكي الشـافعي، شيخ الإسلام، أَوحَـد المجتهدين، شذرات الذهب: ٨/ ٣٠٨.

فأقام ثلاث سنين وتسعةً وخمسين يوماً، ثم خُلع وحُبس بالقلعة.

ثم تولى الملك الصالح صالح أخوه، وهو الثامن ممن تسلطن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأقام ثلاث سنين وثلاثة أشهر، ثم خُلع وحُبس في شوال، سنة خمس وخمسين وسبع مئة، ولم يكن له من السلطنة إلا الاسم، لغلبة شيخو وطاز وصرغتمش على الأمر، [فكانوا] حل المملكة وعقدها.

ثم [عاد الملك] الناصر حسن ثانياً للسلطنة، فأقام ست سنين وسبعة أشهر وأياماً، وجملة مدته عشر سنين وأربعة أشهر وأياماً، ثم حصلت فتنة بينه وبين مملوكه يلبغا، فتقاتلا فانكسر السلطان منه، وهرب يريد الشام، فمُسك وقُتل عند مملوكه يلبغا الناصري، في جمادى الأولى، عام اثنين وستين وسبع مئة.

وفي أيامه بُني جامع شيخو سنة ست وخمسين، وخانقاه [شيخو] سنة ست وخمسين، وخانقاه صرغتمش سنة سبع وخمسين، ومدرسة السلطان حسن بالرميلة سنة ثمان وخمسين وسبع مئة.

قال المقريزي(١): وليس ببلاد الإسلام معبد يحكيها في كبر قالبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها، أقام في بنائها ثلاث سنين متوالية،

---

(١) قال ابن العماد: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحنفي البعلي الأصل، المصري المولد والوفاة، الإمام العالم البارع، عمدة المؤرخين، وعين المحدثين: ٩/ ٣٧٠.

وأرصد لمصروفها كل يوم نحو ألف مثقال ذهب، وسقطت منارتها التي عند الباب، فهلك بمكتبتها نحو ثلاث مئة نفسٍ من الأيتام وغيرهم، فلهج الناس بزوال دولته، فقُتل بعد ذلك بثلاثة وثلاثين يوماً، كما مر.

وكان سلطاناً شجاعاً، مقداماً كريماً، عاقلاً حازماً مُدبراً، سيوساً، ذا شهامةٍ ووقار، كثير البر والصدقات.

وفي أيامه ـ سنة ست وخمسين ـ قال السيوطي في تاريخه: رسم بضرب فلوس جدد على قدر الدينار ووزنه، وجُعل كل أربعة وعشرين فلساً بدرهم، وكان قبل ذلك الفلوس العتق كل رطل ونصف بدرهم. قال: ومن هنا يُعرف مقدار الدرهم النقرة، التي جعلها شيخو وصرغتمش والسلطان حسن لأرباب الوظائف، قال: فالمراد بالدرهم ثلثا رطل من الفلوس.

ثم تولى الملك المنصور محمد بن حاجي ابن الناصر بن قلاوون بعد عمه حسن، فأقام سنتين وثلاثة أشهر، ثم خلعه يَلْبُغا سنة أربع وستين، وحُبس بالقلعة إلى أن مات في سنة إحدى وثمان مئة، وصلى عليه برقوق.

ثم تولى الملك الأشرف شعبان بن حسين ابن الناصر بن قلاوون، وعمره عشر سنين، فأقام أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوماً، وقَتل يَلْبُغا بعد أن عظم أمر يَلْبُغا حتى جاوز الحد.

ثم خُلع بمصر بمخامرة الأمراء عند توجهه للحج، ومن غريب الاتفاق أن الأمراء الذين توجهوا معه قاموا عليه أيضاً في ذلك اليوم في

عقبة إيليا[1]، فهرب منهم إلى القاهرة، فوجد الفتنة فاختفى، ثم مُسك وقُتل خامس ذي القعدة، سنة ثمان وسبعين وسبع مئة، وكان سنُّه أربعاً وعشرين سنةً، ولما قتلوه لم يدفنوه، بل وضعوه في قفةٍ مخيطة، ورموه في بئر حتى ظهرت رائحته.

كان ـ رحمه الله ـ من أجلِّ الملوك سماحةً وشهامةً، هيّناً ليّناً، محباً لأهل الخير والعلماء، واقفاً عند الأمور الشرعية، وهو الذي بنى الأشرفية تجاه القلعة برأس الرميلة، وهُدم أكثرها بعده، وكانت من محاسن الدنيا، ضاهى بها الملك الأشرف مدرسة عمه السلطان حسن، والذي أمر بهدمها فرج بن برقوق، ومكانها الآن بيمارستان المؤيد شيخ.

وفي أيامه ـ سنة ثلاث وسبعين وسبع مئة ـ أُحدثت العلامة الخضراء للأشراف، وفي ذلك قال بعض الشعراء:

جَعَلُوا لأبناءِ الرَّسولِ عَلامةً
إنَّ العَلامَةَ شَأْنَ مَنْ لم يُشْهَرِ
نورُ النُّبُوَّةِ في كَرِيْمِ وُجُوهِهِمْ
يُغْني الشَّرِيفَ عنِ الطِّرازِ الأَخْضَرِ

وفي تلك السنة كان ابتداء خروج الطاغية تمرلنك، الذي أخرب

(١) قال ياقوت الحموي: أيلة، مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر)، مما يلي الشام، معجم البلدان: ١/ ٣٤٧ (١١٩٦).

البلاد، وأباد العباد، وكان أصله من أبناء الفلاحين، ثم صار سراقاً قاطع طريق، إلى أن وصل ما وصل، وحصل منه ما حصل، لا رحمه الله تعالى.

ثم تولى الملك المنصور علي ولد الأشرف شعبان، وعمره نحو سبع سنين، فأقام خمس سنين وأربعة أشهر، وكان محجوراً لصغر سنه، والكلام لبرقوق، وتُوفي يوم الأحد، ثالث عشر صفر، سنة ثلاث وثمانين وسبع مئة.

ثم تولى الملك الصالح حاجي ولد الأشرف شعبان، وعمره ست سنين، فأقام سنةً وستة أشهر وخمسة عشر يوماً والأمر في ذلك لبرقوق، وخُلع بمكيدته في ثامن عشر رمضان، سنة أربع وثمانين وسبع مئة، وهو تمام الدولة القلاوونية التركية الكردية.

ومن العجب أنه قد تولى من ذرية الملك الناصر اثنا عشر سلطاناً، ولم تبلغ مدة سلطنتهم كلهم مدة سلطنة الناصر، فإنه أقام أربعاً وأربعين سنة ونصف شهر ـ كما مر ـ ومدة هؤلاء كانت ثلاثاً وأربعين سنةً، فسبحان الفعال لما يريد.

❒ ❒ ❒

[الدولة الجركسية]

ثم جاءت الدولة الجركسية:

وكان ابتداؤها تاسع عشر رمضان، سنة أربع وثمانين وسبع مئة، وهم نوعٌ من الترك، وهم تابعون لملك خوارزم، وكان قلاوون قد أكثر من شرائهم، واتخاذهم مماليك له، وكذلك بنوه بعده، فكانوا سبباً في زوال دولتهم.

فأولهم الملك الظاهر برقوق العثماني: وكان اسمه من قبل: الطنبغا، فسماه أستاذه: يَلْبُغا الكبير برقوق، لنتوء في عينيه، وليس في الجراكسة من تَسَلْطَنَ وأبوه مسلم غيره، ولُقّب بالظاهر، بإشارة السراج البلقيني[1].

فأقام ست سنين وسبعة أشهر ونصف، ثم تحرك عليه يلبغا الناصري من الشام، وقاتله بمصر إلى أن خُلع في جمادى الآخرة، سنة إحدى وتسعين وسبع مئة، وسُجن بالكرك، وكان قد بدأ بعمارة البرقوقية في

---

(١) قال ابن العماد: السراج البلقيني، الحافظ سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقيني الكناني، شيخ الإسلام، شذرات الذهب: ٩/ ٨٠.

سنة ثلاثٍ وثمانين، وانتهت في ثمان وثمانين وسبع مئة.

ثم [عاد الملك المنصور حاجي] ابن الأشرف شعبان، الملقب في الولاية الأولى بالملك الصالح، فأقام سبعة أشهر، إلى أن خلع نفسه من السلطنة عند ظهور برقوق ثانياً، في شهر المحرم، سنة اثنتين وتسعين، بعد وقعاتٍ بينهما لم يُسمع بمثلها في سالف الدهر.

ثم عاد برقوق ثانياً، ودخل القاهرة والمنصور حاجي عن يمينه، والخليفة أمامه، فأقام تسع سنين وتسعة أشهر، فكانت جملة مدته ست عشرة سنةً وأربعة أشهر وخمسة عشر يوماً، وتُوفي في شوال، سنة إحدى وثمان مئة، ودُفن بتربته بالصحراء.

وخلَّف من الذهب العين ألفي ألف دينار وأربعمئة ألف دينار، ومن الأثاث ما قيمته ألف ألف دينار وأربعمئة ألف دينار، سوى الخيول المسوّمة، والبغال الفارِهَة، والجمال البختية، وكان عليق دوابه في كل شهر أحد عشر ألف إردب شعير.

وكان حازماً مُهاباً مقداماً، مُحباً لفعل الخير والعلماء، ويقوم لهم، ولم يُعرف أحدٌ من الملوك قبله قام لفقيه.

وفي أيامه بُني الجسر العظيم، جسر المجامع على نهر الأردن، المعروف الآن بالشريعة، وما ألطف قول بعضهم:

بَنى سُلْطانُنا بَرْقُوقُ جِسْراً
بِعَدْلٍ والأنامُ لَهُ مُطِيْعَةْ

مَجــــازاً فــــي الحَقِيْقَـــةِ لِلْبَرايـــا
وأَمْـــراً بالــــسُّلُوكِ علـــى الـــشَّرِيْعَةْ

وفي أيامه أراد أن ينقض هذه الأوقاف كلها، وقال إنها أُخذت من بيت المال، وقد استغرقت نصف أراضيه، وعقد لذلك مجلساً حافلاً، حضره السراج البلقيني، وابن جماعة، والشيخ أكمل الدين شيخ الحنفية، فقال البلقيني: أما ما وُقف على العلماء وطلبة العلم، فلا سبيل إلى نقضه؛ لأن لهم في بيت المال أكثر من ذلك، وأما ما وُقف على فاطمة وخديجة وعائشة، فإنه يُنقض، ووافقه الحاضرون.

وكان أول من أحدث وقف أراضي بيت المال على جهات الخير كالمدارس: نور الدين الشهيد، ثم صلاح الدين، لما استفتيا ابن أبي عصرون[1]، فأفتاهما بالجواز على معنى: أنه إرصاد أو إفراز لبيت المال على بعض مستحقيه، ليصلوا إليه بسهولة، لا أنه وقفٌ حقيقي؛ إذ من شرط الموقوف كونه مملوكاً لواقفه، والإمام ليس بمالكٍ لذلك، ووافق ابن أبي عصرون على فتياه [ومراده] جماعةٌ من أئمة المذاهب الأربعة في عصره.

---

(١) قال الذهبي: ابن أبي عصرون، الشيخ الإمام العلامة، الفقيه البارع، المقرئ الأوحد، شيخ الشافعية، قاضي القضاة، شرف الدين، عالم أهل الشام، أبو سعد عبدالله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون التميمي الحديثي الموصلي الشافعي، سير أعلام النبلاء: ٢١/ ١٢٦ (٦٣).

ثم تولى الملك الناصر [فرج] أبو السعادات ابن برقوق، وعمره نحو عشر سنين، فأقام ست سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام، ثم خُلع سنة ثمان وثمان مئة، وفيه يقول أحمد المقري[1]:

مَـضى الظّـاهِرُ الـسُّلْطانُ أَكْـرَمُ مالِـكٍ
إلى رَبِّـهِ يَرْقى إلى الخُلْـدِ فـي الـدَّرَجْ
وقــالُوا سَــتَأْتِي شِــدَّةٌ بَعْــدَ مَوْتِــهِ
فَأَكْـذَبَهُمْ رَبِّـي ومـا جـا سِـوى فَـرَجْ

[وفي] أيامه اختلفت عليـه أمراء الشام، فخرج لقتالهم فهزمهم، واضطربت الأحوال، فوصل تمرلنك لبلاد الشام والروم، فسفك دمـاء المسلمين، وسبى ذراريهم، ونهب أموالهم، وأحرق دورهم، وأسر أمير الشام وقتله، فخرج الناصر لقتاله، فوجده قد ترك البلاد وتوجَّه للروم، فرجع الناصر إلى مصر، وكثرت الفتن، وخربت بلاد مصر، ووهى أمره، فهرب واختفى، وخُلع، كما مر.

ثم تولى الملك المنصور عبد العزيز أخوه، فأقام سبعـة وأربعين يوماً، فتلاشت أمور المملكة لصغر سنـه، واختلاف دولتـه، ثم ظهـر الناصر فرج، ومسكـه وحبسه بالإسكـنـدريـة، في ثالـث عشر جمادى

---

(١) قال المحبي: المقري، أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى المقري التلمساني، خلاصة الأثر: ١/ ٣٠٢.

الأولى، وقتل بها عقبه، في سنة ثمان وثمان مئة.

وعاد الناصر فرج بن برقوق إلى السلطنة ثانياً، وتحالفت عليه الأمور، ووقعت الفتن، فأقام ست سنين وتسعة أشهر، وكان منه ما كان من ذبح جنده وغير ذلك، ثم قُتل شر قتلة بدمشق، في حادي عشر صفر، سنة خمس عشرة وثمان مئة، وأُلقي على مزبلة، ثم دُفن في ثالث يوم، وعمره دون الأربع وعشرين سنةً.

وكان أفرس ملوك الترك بعد الأشرف خليل، تجهَّز سبع مرات للخروج للشام وتمهيدها، وقهر متغلبيها، كالمؤيد شيخ وغيره.

وفي أيامه أحدث المؤذنون عقب الأذان الصلاة والتسليم على سيدنا محمد النبي ﷺ، بأمر المحتسب نجم الدين الطنبذي.

[ثم تولى] أمير المؤمنين الخليفة المستعين بالله الملك العادل أبو الفضل العباس ابن المتوكل العباسي، وفيه يقول الحافظ ابن حجر:

المُلْكُ أَصْبَحَ ثابِتُ الأساسِ
بِالْمُسْتَعِيْنِ العادِلِ العَبّاسِ
رَجَعَتْ مَكانَةُ ابن(1) عَمِّ المُصْطَفى
لِمَحَلِّها مِنْ بَعْدِ طُوْلِ تَناسِي

وهي طويلة.

---

(1) في المتن «ابن عم المصطفى» وفي نسخة بيل وبرلين «آل عم المصطفى».

فأقام ستة أشهر وأياماً، ثم خُلع من السلطنة في مستهل شعبان من سنته، وكان قد استناب المؤيد شيخ، وشاركه في الخطبة، والأمر لشيخ، فتغلَّب على السلطنة، وخُلع المستعين من الخلافة، وبايع بالخلافة أخاه داود، سنة خمس عشرة وثمان مئة.

ثم تولى [المؤيد أبو النصر] شيخ المحمودي الظاهري البرقوقي، وأقام الخليفة بالقلعة محبوساً، إلى أن أرسله إلى الإسكندرية في شهر المحرم، سنة تسع عشرة وثمان مئة، وصحبته أولاد الناصر فرج.

فأقام المؤيد ثمان سنين وخمسة أشهر، وتُوفي يوم الثلاثاء من شهر المحرم، سنة أربع وعشرين وثمان مئة.

وخرجت عنه الشام، فتجهَّز للقتال إلى أن مهَّدها، ثم خرجت ثانياً، فجرَّد ثانياً، وقتل أمراءها ومهَّدها، ثم تجرد مرةً ثالثة إلى بلاد الشمال، وافتتح قلاعاً كثيرة، ثم قام في أرغد عيش، فاعتراه وجع المفاصل حتى أُقعد، فصار يُحمل على الأكتاف إلى أن مات، وكان سلطاناً شجاعاً، مقداماً مهاباً، عارفاً بأنواع الفروسية، ومكر الحروب، معظِّماً للشريعة، محباً للفقهاء والعلماء.

وفي أيامه بُنيت المدرسة المؤيدية، بدأ فيها سنة سبع عشرة، وكمُلت في سنة عشرين وثمان مئة.

وفي سنة ثماني عشرة أرسل المؤيد منبراً حسناً للمسجد الحرام، ودرجةً يصعد عليها للكعبة، وفيها عمّر شريف مكة حسن بن عجلان ـ جد

أشراف مكة الآن ـ البيمارستان وقف المستنصر العباسي بعد دثوره.

ثم تولى الملك المظفر أبو السعادات أحمد ولده، وعمره دون سنتين، والأمر لططر، فأقام ستة أشهر وأياماً، ثم خلعه بالشام بعد فتن وحروب وقعت بأرض مصر والشام.

وسبب كون الأمر كان لططر: ما ذكر بعض فقهاء الحنفية له أن [في] فروع المذهب: أن السلطان إذا كان صغيراً، وأجمع أهل الشَّوكة على إقامة رجلٍ للتحدث عنه في أمور الرعية حتى يبلغ رشده، نفذت أحكامه.

ثم تولى الملك [الظاهر أبو الفتح ططر]، تاسع عشري شعبان بدمشق، سنة أربع وعشرين وثمان مئة، فأقام ثلاثة وتسعين يوماً، وتُوفي في خامس ذي الحجة سنة تاريخه، ودُفن بجوار الليث[1] بالقرافة، وكان ملكاً جليلاً عالي الهمة، يُحب مجالسة العلماء وأهل الفضل.

ثم تولى الملك الصالح محمد ولده، وعمره نحو عشر سنين، فأقام نحو أربعة أشهر ويومين وخُلع، في ثامن ربيع الآخر، سنة خمس وعشرين وثمان مئة، وأقام إلى أن مات في الطاعون، سنة ثلاث وثمانين وثمان مئة.

ثم تولى الملك الأشرف أبو النصر [برسباي] الدقماقي سنة خمس

---

(١) قال الذهبي: الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث الفهمي مولاهم، الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، وعالم الديار المصرية، روى له الجماعة، سير أعلام النبلاء: ٨/ ١٣٦ (١٢)، تهذيب الكمال: ٢٤/ ٢٥٥ (٥٠١٦).

وعشرين، وهـو ثامن ملوك الجراكسـة، فأقام سلطانـاً ست عشرة سنةً وثمانية أشهر وخمسة أيام، وتُوفي نهار السبت، ثالث عشر ذي الحجة، سنة إحدى وأربعين وثمان مئة، ودُفن بتربتـه التي أنشأهـا، خارج باب النصر، بجوار تربة الظاهر برقوق ـ رحمه الله تعالى ـ.

وكان سلطاناً جليلاً شهماً، مدبِّراً عاقلاً، لين الجانب، يميل إلى الخير، وسماع القرآن، ويصوم الخميس والإثنين، والأيام البيض، وأول الشهر وآخره، ويُبجّل أهل الصلاح.

وفي أيامه بنى المدرسة الأشرفية التي بالعنبرانيين بالقاهرة المحروسة، والتربة خارج باب النصر، والمدرسة بالخانقاه السرياقوسية.

وفُتحت جزيرة قبرس في أيامه سنة تسع وعشرين، وهو في تخت مملكته بمصر لم يتحرك؛ بحسن تدبيره وسياسته، بعد أن وجَّه لها نحو الخمسين مركباً، وأحضر ملكها أسيراً، ومنّ عليه، وأعاده إلى بلده بمن شاء من جماعته، وصار يُرسل الجزية في كل سنة.

وأمر بعمارة أماكن متعددة بالمسجد الحرام، وكانت سفرته المشهورة إلى آمد[1] وديار بكر سنة ست وثلاثين وثمان مئة، وله الأوقاف العظيمة على أنواع القُرب، فالله يرحمه ويُسامحه.

ثم تولى الملك عبد العزيز أبو المحاسن يوسف ولده، فأقام ثلاثة

---

(١) قال ياقوت الحموي: آمـد، أعظم مدن ديار بكر، وأجلّها قدراً، وأشهرها ذكراً، معجم البلدان: ١/ ٧٦ (٤٠).

أشهر وستة أيام، وخُلع تاسع عشر ربيع الأول، عام اثنين وأربعين، وأقام أياماً وجُهِّز للإسكندرية، ومات بها في أيام الظاهر خشقدم.

ثم تولى الملك الظاهر أبو سعيد جقمق العلائي علي بن أينـال، فأقام أربـع عشرة سنةً وعشرة أشهر، وتُوفي ليلة الثلاثاء، ثالث صفر، سنة سبع وخمسين وثمان مئة، بعد أن فوض أمر السلطنة لولده، في حادي عشري المحرم، في ابتداء توعكه، ودُفن بتربة الأمير قايتباي الجركسي.

وكان قد خرج عن طاعتـه نائب حلب ونائـب دمشق، فجرَّد لهما العساكر وقتلهما، ثم صفا له الوقت، وغزا في أيامه رودس ولم يفتحها.

وعمّر في أيامه أشياء كثيرة؛ من مساجد وجوامع وقناطر وجسور، وغير ذلك مما فعله هو وأرباب دولته، وعمّر عين حنين وأصلح مجاريها، وعمّر مسجد الخيف بمنى، وجـدد في الحرم الشريف مواضع، ورمّم الكعبة، وصرف مالاً عظيماً في جهات الخير، وله مآثر حميدة.

وكان مُغرماً بحب الأيتام والإحسان إليهم وإلى غيرهم، متواضعاً، محبّاً للفقهاء والعلماء والصالحين، جواداً، طاهر الفم والذيل، فقيهاً فاضلاً، شهماً، عارفاً بأنواع الفروسية، وكان يقوم لمن يدخل عليه من الفقهاء والفقراء.

ثم تولى الملك [المنصور عثمان] أبو السعادات ولده، فأقام أربعين يوماً، وخُلع مستهل ربيـع الأول، سنة سبـع وخمسين وثمان مئة، بعد حروبٍ كثيرة، ثم جُهز للإسكندرية.

ثم تولى [الملك الأشرف أبو النصر] أينال العلائي الناصري، ثامن ربيع الأول، فأقام ثمان سنين وشهرين وستة أيام، وتُوفي يوم الخميس، خامس عشر جمادى الأولى، سنة خمس وستين وثمان مئة، بعد أن فوض لولده السلطنة، ودُفن بتربته التي أنشأها بالصحراء في القبة بجوار مدرسته.

وكان قليل السماع للكلام في الناس، قليل سفك الدماء، متجاوزاً عن الخطايا والتقصير، إلا أن مماليكه ساءت سيرتهم في الناس، وكان أُمِّياً لا يحسن الكتابة ولا القراءة.

ثم تولى الملك المؤيد أحمد أبو الفتح ولده، فأقام خمسة أشهر وأربعة أيام، وخُلع يوم الأحد، تاسع عشر شهر رمضان، سنة خمس وستين وثمان مئة، وكان قد ساس الناس أحسن سياسة، وأمنت السبل في أيامه، وقمع مماليك أبيه فانكفوا.

وكان أحسن ملوك مصر وجهاً، ومعرفةً، وتدبيراً وسياسةً، إلا أنه لم يجد معيناً ولا منصفاً، بل تحاملوا عليه وخلعوه من غير موجب؛ لأن الدهر لا يُنصف مثل هذا، ولا يرفع إلا ناقصاً.

ثم تولى الملك الظاهر أبو سعيد خشقدم، الطواشي الروسي، الناصري ثم المؤيدي، فأقام ست سنين وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً، وتُوفي يوم السبت، عاشر ربيع الأول، عام اثنين وسبعين وثمان مئة، ودُفن بتربته التي أنشاها بالصحراء.

قالوا: وهو السلطان الأول من الأروام بالديار المصرية، إن لم يكن المعز أيبك التركماني ولاجين من الأروام.

وكان له معرفةٌ بفنون الفروسية، وله حذقٌ ومعرفة، وعنده مشاركةٌ في علم القراءات، وفيـه محاسن، لولا [طمعٌ وشحٌّ] كان فيه، وأفعال مماليكه الأجلاب في الناس، ولذلك طلب الناس زواله.

ثم تولى الملك الظاهر أبو سعيد يلباي العلائي المؤيدي الجركسي يوم وفاة الظاهر خشقدم، فأقام سبعة وخمسين يوماً وليس له من السلطنة إلا الاسم، وخُلع يوم السبت، سابع جمادى الأولى، وجُهز للإسكندرية، فأقام بها إلى أن مات.

ثم تولى الملك الظاهـر [أبـو سعيـد] تمربغـا الظاهري يوم خلع يلباي، فأقام ثمانيـة وخمسين يوماً، وخُلع يوم الإثنين سادس رجـب، عام اثنين وسبعين وثمان مئـة، وجُهز مكرماً على أحسن حال إلى ثغـر دمياط، ثم أُعيد إلى إسكندرية ليسكن بهـا في أي مكان شاء، فأقام بها إلى أن مات.

وكان جامعاً بين فنون العلم والفروسية، والذكاء والفصاحة، وفنون السياسة وأنواع الكمال، قالوا: لم يلِ مصر من يشبهه بل ولا يقاربه، إلا أن الدهر غير منصف.

ثم تولى الملك الأشرف أبو التصر قايتباي الظاهري المحمودي، نسبةً للخواجا محمود جالبه، وللظاهر جقمق معتقه، وهو السادس [عشر] من ملوك الجراكسة، والحادي والأربعون من ملوك الترك.

بُويع يوم خلع الظاهر تمربغا، وذلك يوم الإثنين، سادس رجب،

عام اثنين وسبعين وثمان مئة، فأقام في السلطنة تسعاً وعشرين سنةً وأربعة أشهر وعشرين يوماً، وتُوفي آخر نهـار الأحـد، ودُفن يوم الإثنين، من القعدة، سنة إحدى وتسع مئة، بقبةٍ بناها بتربته بالصحراء شرقي القاهرة، وقبره ظاهر يُزار، رحمه الله.

وكان ملكاً جليلاً، وسلطاناً نبيلاً، له اليـد الطولى في الخيرات، والطول الكامل في إسداء المبرات، وكانت أيامه كالطراز المذهب، وهو واسطة عقد ملوك الجراكسة، وأطولهم مدة.

واستقَّر له المُلك في أيامه، وساد في المملكة بشهامةٍ ما سادها ملكٌ قبله، من عهد الناصر محمد بن قلاوون، بحيث أنه سافر إلى الفرات في طائفةٍ يسيرةٍ من الجند.

ولم يُوَلِّ بمصر صاحب وظيفةٍ دينيةٍ كالقضاة والمشايخ والمدرسين، إلا أصلح الموجودين لها، بعد طول [تروية] وتمهل، وسافر إلى الحجاز برسم الحج سنة أربع وثمانين، قبل حريق المسجد النبوي، فبدأ بزيارة المدينة، وفرّق بها سبعة آلاف دينار، ثم قدم مكة، وفرّق بها خمسة آلاف دينار، وحجَّ وعاد وزينت البلد لقدومه.

وأنشأ بمكة عند باب السلام مدرسةً لطيفة، وقرَّر بها شيخاً وصوفية، وبجانبها رباطاً للفقراء، وعمل بالمدينـة المنورة مدرسة، وجدد المنبر والحجرة، ورتَّب لأهل المدينة والواردين لها ما يكفيهم.

وعمل أيضاً ببيت المقدس مدرسة، وبغزة مدرسة، وله بصالحية قَطْيَا جامع، وجدد من جامع عمرو بن العاص بعض جهاته، وأنشأ ميضأة

الجامع الأزهر، والفسقية المعتبـرة، والسبيل والمكتب ببابه، والمقام الأحمدي، والمقام الدسوقي، ومدرسة عظيمة بثغر دمياط(١).

واجتهد في بناء المشاعر العظام؛ كعمـارة مسجـد الخيف بمنى، ومسجد نمرة بعرفة، وعمّر بركة خليص، وأجرى العين إليها، وعمّر عين عرفـة بعد انقطاعها نحـو مئة وخمسين سنةً، وسقاية العباس، وأصلح ما بين زمزم والمقام، وأرسل للمسجد الحرام منبراً عظيماً.

وله بمصر عدة مساجد وسقايات وعمائر نفيسة، ومسجد بالروضة، كان في الأصل مسجداً للفخر كاتب مماليك البحرية.

وفي أيامه سنة ست وثمانين وثمان مئة، نزلت صاعقةٌ على المئذنة بالحرم النبوي فأحرقتها، وأحرقت سقوف المسجد الشريف، وما فيه من خزائن وكتب، ولم يبق سوى الجدران، وكان أمراً مهولاً.

وفي أيامـه خرج يشبك الدوادار إلى جهـة العـراق بعسكر مصر، فالتقوا مع عسكر يعقوب شاه، بقرب الرهـا، فكُسر المصريون، وأُسر الدوادار، وكان يكره قاضي الحنفيـة الأمشاطي، وكلٌ منهما يود زوال الآخر، فكان قتل الدوادار [بشاطئ الفرات]، وموت الأمشاطي بمصر

---

(١) جاء في الحاشيـة بخط الناسخ «قلت: وقد غفل هذا المؤرخ عن بقية ما مر بالجامع الأزهر، غير ما ذكر، من تجديد المقصورة، التي عليها اسمه منقوش، وغالب سقف الجامع وبلاطه، والمنار اللطيف، الذي لا يضاهيـه... في مصر. انتهى».

في يومٍ واحد.

ثم تولى الملك الناصر محمد أبو السعادات ولـد قايتباي، بُويع بالسلطنة بمرض والده قبل موته بيوم، وهو في سن البلوغ، في سادس عشري ذي القعدة، سنة إحدى وتسع مئة، فأقام ستة أشهر ويومين، ثم خُلع في ثامن عشري جمادى الأولى، بعـد ثبوت عجزه عن السلطنة، بحضرة القضاة والخليفة المتوكل على الله وأركان الدولة.

ثم تولى الملك الأشرف قانصوه ـ مملوك قايتباي ـ رأس العساكر، فأقام نحـو أحـد عشر يومـاً، وحاصر القلعـة ليدخلها، فلم يحصل لـه الغرض، وحصل له ضربة في وجهه، ثم تحرك عليه العسكر، فهرب إلى غزة، ثم فُقد في وقعة خان يونس، ولم يُعرف موته ولا حياته.

ثم عاد [الملك الناصر محمـد] ابن قايتباي للسلطنـة بعـد ثبوت رشده، فأقام سنةً وستة أشهرٍ ونصف شهر، ثم شرع في اللهو واللعب والشعبذة ومخالطة الأوباش، وارتكاب الفواحش، وأمورٍ لا يليق ذكرها، وصدق عليه قول القائل:

مَا المَوْتُ فاعْلَمْهُ التَّلَفْ
لكِنَّهُ سُوْءُ الخَلَفْ

فقُتل شر قتلة، يوم الأربعاء قبيل غروب الشمس، خامس عشري ربيع الأول، سنة أربع وتسع مئة.

ثم تولى الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه الأشرفي القايتبائي، خال

الناصر، أقامته أخته مقام ولدها، وبذلت لـه الأموال والخزائن، بُويع بالسلطنة بحضرة الخليفة والقضاة، وقت صلاة الجمعـة، سابع عشري ربيع الأول، سنة أربع وتسع مئة، وعمره فوق العشرين سنةً، فأقام سنةً وثمانية أشهر واثني عشر يوماً، ثم قام العسكر عليه فاختفى.

وكان قد حصل في أيامه العدل والأمن، ورتب للجامع الأزهر في أيام رمضان الخبز والحرمزه، فصارت سُنَّةً ماضيةً إلى يومنا، وضاعف الغوري ذلك في أيامه أضعافاً كثيرة.

ثم [تولى الملك الأشرف] جـان بلاط، ثاني ذي الحجـة، سنـة خمس وتسعمئة، فاستقر في السلطنة، وجلس على سرير الملك، فأقام نصف سنة وستة عشر يوماً، وبنى المدرسة الجنبلاطية، خارج باب النصر، ثم خُلع ونُفي للإسكندرية.

[ثم تولى الملك العادل طومان باي] سيف الدين، وكان من أعيان مماليك قايتباي، فبُويع بالسلطنة بالشام، وجلس على السرير بعد ظهر يوم السبت، ثامن عشري جمادى الآخرة، سنة ست وتسع مئة، وكانت مدته من حين تغلبه بالشام أربعة أشهر وخمسة عشر يوماً، ومن حين بُويع بقلعة الجبل ثلاثـة أشهر وعشرين يوماً، وبنى مدرسته العادلية، وتربته خارج باب القرافة، ثم هجم عليه العسكر وقتلوه.

ثم تولى الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، يوم الإثنين عيد الفطر، مستهل شوال، سنة ست وتسع مئة، بعد أن هـاب الأمراء الجلوس على تخت الملك، وجعل بعضهم يُحيل على بعض في الجلوس

عليه، فاتفقوا على الغوري؛ لأنهم رأوه لين العريكة، سهل الإزالة أي وقت أرادوه.

وليس الأمر كما ظنوه، فقال لهم: أقبل ذلك بشرط ألاّ تقتلوني، بل إذا أردتم خلعي وافقتكم، فاستوثق منهم، وبُويع بقلعة الجبل، بحضرة الخليفة المستنصر بالله والقضاة الأربع وأصحاب الحل والعقد، فأقام سلطاناً خمسة عشرة سنةً وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

وكان ذا رأي وفطنة، كثير الدهاء والعسف، قمع الأمراء، وأذلّ المعاندين، حتى اشتد ملكه وهيبته، فهادته الملوك، وأرسلت قُصّادها إليه، كملك الهند، واليمن، والمغرب، والروم، والمشرق، والعبيد، والإفرنج، وفكَّ الأسرى منهم.

وكان له المواكب الهائلة، ومهَّد طريق الحج، بحيث كان يسافر إليه من مصر النفر القليل، وكان فيه خصال حسنة، وكان يصرف لمطبخ الجامع الأزهر في رمضان ست مئة وسبعين ديناراً، ومئة قنطار عسل، وخمس مئة إردب قمح للخبز المفرق فيه.

وفي أيامه بنى دائرة الحجر الشريف، وبعض أروقة المسجد الحرام، وباب إبراهيم، وجعل علوه قصراً شاهقاً، وتحته ميضأة، وبنى عدة خانات وآبار في طريق الحاج المصري؛ منها خان في العقبة والأزلم.

وأنشأ مدرسته بسوق الجملون بالقاهرة، والتربة المقابلة لها، والمئذنة المعتبرة بالجامع الأزهر، والبستان تحت القلعة، والمنتزه العجيب

بالملقة، وأنشأ مجرى الماء من مصر العتيقة إلى القلعة، وعمّر بعض أبراج الإسكندرية، وغير ذلك من جوامع وقصور ومنتزهات[1].

إلا أنه يقال كان شديد الطمع، كثير الظلم والعسف، مصادراً للناس في أخذ أموالهم، وبطل الميراث في أيامه، بحيث كان إذا مات أحدٌ أُخذ ماله جميعه - كذا قال القطبي - فجمع أموالاً عظيمة، وخزائن واسعة، وافتتح اليمن، واتخذ مماليك لنفسه، فصاروا يظلمون الناس وأظهروا الفساد، وأضروا العباد، وصار يُغضي عنهم ويسامحهم.

ويُحكى أن بعض مماليكه اشترى متاعاً، ولم يُرض صاحبه في قيمته، فقال له: شرع الله، فضربه بالدبوس فشجَّ رأسه، وقال: هذا شرع الله، فسقط مغشياً عليه، ومضى بالمتاع، ولم يقدر أحدٌ يتكلم، فرفع بعض الصالحين يديه ودعا على الجندي وعلى سلطانه بالزوال، ثم قالت له نفسه: كيف يزول ملك هذا السلطان العظيم، الذي ملأت جنوده وسطوته الأرض.

فلم يمض إلا قليل، ثم وقعت فتنة بينه وبين السلطان سليم ملك الروم، بسبب إسماعيل شاه - كما سيأتي عند ذكر السلطان سليم - فقصد كل منهما الآخر في عسكرين عظيمين، فالتقيا بموضع يُسمى مرج

---

(١) جاء في الحاشية بخط الناسخ «وأنشأ أيضاً مدرسة بغرب... بالقرب من القرافة، وسبيل المؤمنين بالرميلة، تحت القلعة، وجدد جامع المقياس، وبنى القاعات المعتبرة به، المطلة على النيل وغير ذلك. انتهى».

دابق[1]، شمال حلب بمرحلة، خامس عشري رجب، عام اثنين وعشرين وتسع مئة، فانهزم عسكر الغوري، بمكيدة خير بك والغزالي من جماعته.

وفُقد الغوري تحت سنابك الخيل في مرج دابق، ويُقال إنه قُتل في تلك الوقعة ـ رحمه الله تعالى ـ وأقام السلطان سليم بعد الوقعة في بلاد الشام شهراً، وأمر بعمارةٍ على قبة الشيخ محيي الدين ابن العربي[2] بصالحية دمشق.

ثم تولى في تلك المدة [بمصر] الملك الأشرف طومان باي الجركسي، ابن أخي الغوري، ووقع بينه وبين السلطان سليم حروبٌ يطول ذكرها، ثم سلَّم نفسه طائعاً، فقُتل بباب زويله، وأمر سليم بدفنه بجانب مدفن الغوري المشهور.

وفي آخر أيام الغوري ـ في حدود العشرين ـ ظهرت الإفرنج البرتقان[3] على بنادر الهند، استطرقوا إليها من بحر الظلمات[4]، من وراء جبال القمر، بمنبع النيل، [فعاثوا] في أرض الهند، ووصل أذاهم

---

(١) قال ياقوت الحموي: دابق، قرية قرب حلب، من أعمال عَزَاز، عندها مرج معشب نزه، معجم البلدان: ٢/ ٤٧٥ (٤٥٤٠).

(٢) قال الذهبي: ابن عربي، العلامة صاحب التصانيف الكثيرة، محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتي المرسي ابن العربي، نزيل دمشق، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٤٨ (٣٤).

(٣) الإفرنج البرتقال: وهو اليوم: البرتغال.

(٤) بحر الظلمات: وهو المحيط الأطلسي.

وفسادهم إلى جزيرة العرب، وبنادر اليمن وجدة.

فلما بلغ السلطان الغوري ذلك، جهز إليهم خمسين غراباً[1] مع الأمير حسين الكردي، وأرسل معه فيها عسكراً عظيماً من الترك والمغاربة واللوند[2]، وجعل له جدة إقطاعاً، وأمره بتحصينها.

فلما وصل حسين الكردي شرع في بناء سورها، وإحكام أبراجها، وهدم كثيراً من بيوت الناس، مع عسفٍ وشدة ظلم، بحيث بنى السور جميعه في دون عام، ثم توجه بعساكره إلى الهند، في حدود أحد وعشرين وتسع مئة، فاجتمع بسلطان كجرات خليل شاه، فأكرمه وعظمه، وهرب الإفرنج عن البنادر لمّا سمعوا بوصوله.

ثم عاد حسين الكردي على اليمن، ففتتحها من بني ظاهر ملوكها، وقتل سلطانها في عام اثنين وعشرين، وترك بها نائباً في زبيد[3] اسمه برسباي الجركسي، وتمَّ الأمر الذي لا مزيد عليه له وللسلطان الغوري، وإذا تم شيء بدا نقصه.

ثم عاد حسين إلى جدة، وقدم مكة، فبلغه زوال دولة الغوري،

---

(١) الغراب: وهي نوع من السفن الحربية.

(٢) اللوند: طائفة من المقاتلين المرتزقة في العصر العثماني، وعادة ما يكونون من أصول يونانية.

(٣) قال ياقوت الحموي: زبيد، مدينة مشهورة باليمن، أحدثت أيام المأمون العباسي، معجم البلدان: ٣/ ١٤٨ (٥٩٤٦).

وورد أمر السلطان سليم بقتل حسين الكردي، فأخذه شريف مكة بغتة، وقيَّده وشمت به، وأرسله لبحر جدة فغرقه فيه.

وبطومان باي انقرضت دولة الجراكسة، وارتفعت السلطنة من مصر، وعادت للنيابة كما كانت في صدر الإسلام.

وأول نوابها بعد سلطنة الجراكسة خير بك، أقامه السلطان سليم نائباً بها، واستمر إلى أن مات، ودُفن بمدرسته الخيربكية تحت القلعة بدرب الوزير، [ثم] مصطفى باشا، ثم أحمد باشا، وتسلطن فقُتل كما سيأتي، وهلم جرا.

فائدة: تولى مصر اثنان وعشرون سلطاناً [مسّهم] الرق، أيبك التركماني، وقطز المعزي، وبيبرس الظاهر، وقلاوون، وكتبغا، ولاجين، وبيبرس الجاشنكير، وبرقوق، والمؤيد شيخ، وططر، وبرسباي، وجقمق، وأينال، وخشقدم، ويبلباي، وتمربغا، وقايتباي، وقانصوه، وطومان باي، وجنبلاط، والغوري، وطومان باي ابن أخيه، آخر الدولة المصرية الجركسية.

قال الناظم فيه:

وكانَ شَخْصاً حَسَنَ المُجالَسَةْ

وَهْوَ انْتِهاءُ مُدَّةِ الجَراكِسَةْ

[وعدة سلاطين الجراكسة] اثنان وعشرون، ومدتهم مئة وثمان وأربعون سنةً.

[الدولة الرومية العثمانية]

ثم جاءت الدولة الرومية العثمانية:

ألبسها الله تعالى لباس العز المقرون بالدوام، وحلاها بحلية النصر المستمر بمرور الليالي والأيام.

فأولهم بمصر السلطان سليم: تولى مصر مستهل سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة، وله عدة جدود تولوا كلهم السلطنة بالروم ثم بالقسطنطينية العظمى، ولم يتولوا مصر، ولا بأس بذكرهم كلهم هنا استطراداً لتتم الفائدة.

فأولهم السلطان عثمان الغازي ابن طغريل بن سليمان شاه: تولى سنة تسع وتسعين وست مئة، في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، صاحب مصر، فأقام ستاً وعشرين سنةً، وتُوفي سنة خمس وعشرين وسبع مئة.

وكان سليمان شاه جده سلطاناً بالمشرق، في بلاد ماهان قرب بلخ[1]، وأصله من التركمان الرحالة النزالة، من طائفة التتار، ويتصل

---

(١) قال ياقوت الحموي: بلخ، مدينة مشهورة بخراسان، من أجل مدن خراسان، =

نسبه إلى يافث بن نوح، **كذا قال القطبي**[1].

ونقل صاحب درر الأثمان[2]: أن أصل منبع ملوك بني عثمان من صميم عرب الحجاز.

وزاد جماعةٌ من أهل التاريخ: أنه من المدينة الشريفة، والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما ظهر جنكيز خان أخرب بلاد بلخ، فخرج سليمان شاه بخمسين ألف بيت إلى أرض الروم، فغرق بالفرات، فدخل ولده طغريل الروم، فأكرمه السلطان علاء الدين السلجوقي، سلطان الروم.

فلما مات طغريل خلف أولاداً، أشدهم بأساً، وأعلاهم همةً: عثمان، فنشأ مُولعاً بالقتال والجهاد في الكفار، فلما أُعجب السلطان علاء الدين السلجوقي ذلك منه، أرسل إليه الراية السلطانية، والطبل والزمر.

فلما ضربت النوبة بين يديه، قام على قدميه تعظيماً لذلك، فصار قانوناً مستمراً لآل عثمان إلى الآن، يقومون عند ضرب النوبة، ثم بعد ذلك تمكَّن من السلطنة، وافتتح من الكفار عدة قلاع

= وأذكرها وأكثرها خيرا، وأوسعها غلة، معجم البلدان: ١/ ٥٦٨ (٢٠٩٦).

(١) القطبي: هو النهروالي قطب الدين محمد بن أحمد بن محمد ابن قاضي خان محمود، صاحب كتاب «البرق اليماني في الفتح العثماني»، البدر الطالع: ٢/ ٥٧، كشف الظنون: ١٢٦.

(٢) قال المحبي: صاحب كتاب «درر الأثمان» هو محمد بن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي المصري، خلاصة الأثر: ٣/ ٤٦٥.

وحصون ـ رحمه الله تعالى ـ.

ثم تولى السلطان أورخان ولده، سنة ست وعشرين وسبع مئة، فأقام خمساً وثلاثين سنةً، وتُوفي سنة إحدى وستين وسبع مئة، في أيام السلطان حسن، صاحب مصر.

وكان شديداً على الكفار، ففاق والده في الجهاد، وفتح البلاد، فافتتح قلاعاً كثيرةً، وحصوناً منيعةً، وفتح بُرسا، وجعلها مقر سلطنته، **هذا كله ما ذكره الشيخ القطبي**.

وذكر صاحب «درر الأثمان، في أصل منبع آل عثمان»: أن عثمان جدهم الأعلى من عرب الحجاز، وأنه هاجر من الغلاء لبلاد قرمان، واتصل بأتباع سلطانها، في سنة خمسين وست مئة، وتزوج من قونيا[1]، فوُلد له سليمان، فاشتهر أمره بعد عثمان، ثم تسلطن سليمان، وهو الذي فتح بُرسا في حدود ثلاثين وسبع مئة.

ثم تسلطن بعد سليمان ولده عثمان جق ـ أي: الأصغر ـ ويُقال هو الذي فتح بُرسا، وأنه هو أول ملوك بني عثمان، فإنه استقل بنفسه، وأخذ له مُلكاً بقائم سيفه، عن أتباع السلاجقة، بخلاف أبويه؛ فإنهما كانا تابعين للملوك السلجوقية.

ثم تسلطن بعد عثمان ولده أرون علي، فعظم أمره، ونبل قدره،

---

(١) قال ياقوت الحموي: قونية، من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها وبأقصري سُكنى ملوكها، معجم البلدان: ٤/ ٤٧١ (٩٩٩٢).

ثم تسلطن بعده ولده أورخان، يعني المتقدم ذكره، انتهى.

ثم تولى السلطان مراد ولد أورخان، سنة إحدى وستين وسبع مئة، فأقام إحدى وثلاثين سنةً، وتُوفي سنة اثنين وتسعين وسبع مئة، في أيام الظاهر برقوق، صاحب مصر.

وكان شديد البطش والفتك في الكفار، وافتتح كثيراً من البلاد، منها أدرنه، فُتحت سنة إحدى وستين وسبع مئة، فلما ضاق الكفار به ذرعاً أظهر واحد من ملوكهم الطاعة له، وقدم ليُقبل يده، فضرب السلطان بخنجر كان في يده.

ثم تولى السلطان يلدرم بايزيد ولده، سنة اثنتين وتسعين وسبع مئة، فأقام ثمانياً وعشرين سنةً، وتُوفي سنة عشرين وثمان مئة، في أيام المؤيد شيخ، صاحب مصر، وكان ملكاً شهماً شجاعاً، استولى على كثيرٍ من قلاع النصارى وحصونهم.

ولم يزل بايزيد شأنه في العلا يزيد، إلى أن جرد له الحتف سيف [العنا] والقهر، وطاف في جنان ملكه سم تيمور، الذي كان من نوائب الدهر، ووافاه من رواد الردى من لا يغفل عن بايزيد ولا عمرو.

ذلك أنه لما رام أن يستولي على ملوك الطوائف، وضيق على جماعتهم، فهرب منهم جماعة، واستعانوا عليه بتيمور ذلك الباغي، وحسنوا له الوصول لبلاد الروم، فالتقى مع بايزيد، وكانت وقعة عظيمة.

ثم إن بايزيد خدعه عسكره، وانهزموا عنه، فثبت هو وقليلٌ ممن

معه، مجرداً سيفه لا يُطاق، فرموا عليه بساطاً ومسكوه، بعد أن قارب الوصول إلى تيمور، ثم جعلوه في الحبس، فحصل له حمى غضبية، فمات رحمه الله، فتنازع بنوه السلطنة من بعده، ودام القتال بينهم مدة مديدة.

ثم تولى [السلطان] محمد ولده، سنة عشرين وثمان مئة، في أيام الأشرف برسباي، وكان شجاعاً مقداماً مجاهداً، افتتح عدة قلاع وبلاد، وبنى المدارس، وعمّر العمائر، وهو أول من عمل الصرّ[1] للحرمين الشريفين من آل عثمان.

ثم تولى السلطان مراد ولده، سنة ثمان وعشرين وثمان مئة، فأقام ثمانياً وعشرين سنةً، ثم خلع نفسه من الملك لولده السلطان محمد، سنة ست وخمسين وثمان مئة، وتُوفي سنة أربع وستين وثمان مئة، في زمن الأشرف أينال، صاحب مصر.

وكان ملكاً مقداماً شجاعاً، وله الفتوحات العديدة ببلاد الروم، والصدقات الجزيلة، وكان يُرسل للحرمين في كل سنةٍ ثلاثة آلاف وخمس مئة دينار.

ثم تولى السلطان محمد ولده، في حياة والده، سنة ست وخمسين، فأقام إحدى وثلاثين سنةً، وتُوفي سنة ثمان وثمانين وثمان مئة، في أيام الأشرف قايتباي، وكان من أعظم الملوك جهاداً، وأقواهم إقداماً واجتهاداً،

---

(١) الصر: قائمة بأسماء من ترسل لهم العطايا من السلطان العثماني للحرمين الشريفين.

وكان من أعظم سلاطين آل عثمان، وهو الذي سنَّ لهم القوانين الخاصة بهم الآن.

وفي أيامه افتتح القسطنطينية الكبرى، وساق إليها السفن براً وبحراً، وأقام في حصارها خمسين يوماً، ثم افتتحها نهار الأربعاء، في جمادى الآخر، سنة سبع وخمسين وثمان مئة، وصلى الجمعة في آيا صوفيا، ثم جعلها مقر سلطنته، وبنى بها المدارس، ورتَّب الرواتب ـ رحمه الله تعالى ـ.

ثم تولى السلطان بايزيد ولده، سنة سبع وثمانين وثمان مئة، فأقام إحدى وثلاثين سنةً، وتُوفي سنة سبع عشرة وتسع مئة، في أيام الأشرف الغوري، بطريق أدرنه، بعد أن خلع نفسه لولده سليم، وكان محباً للعلماء، والمشايخ والأولياء، وله رياضات.

وفي أيامه تزايد الفتح ببلاد الروم، وفتح عدة قلاع وحصون، وبنى المدارس والجوامع، والتكايا والزوايا والخوانق، ودار الشفا للمرضى، والحمامات والجسور، ورتَّب للمفتي الأعظم، ومن في مرتبته من العلماء، لكل واحدٍ في كل عام عشرة آلاف عثماني، وكان يُرسل للحرمين في كل سنةٍ أربعة عشر ألف دينار، نصفها لمكة، ونصفها للمدينة.

وفي أيامه قاتله أخوه السلطان جم على السلطنة، ثم انهزم جم إلى مصر، وحج في زمن السلطان قايتباي ثم عاد، فأكرمه قايتباي إكراماً عظيماً، ثم رجع للروم، فأرسل بايزيد إليه من يسمُّه، فحلق رأسه بموسى مسموم فمات.

وفي أيامه كان ظهور إسماعيل شاه، فاستولى على ملوك العجم، وأظهر مذهب الإلحاد والرفض، وغيَّر اعتقاد أهل العجم إلى يومنا هذا.

وفي أيامه قدم عليه خطيب مكة؛ الشيخ محيي الدين بن عبد القادر ابن عبد الرحمن العراقي، والشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسين؛ شاعر [البطحاء]، وامتدحه بقصيدة، ولا بأس بذكر بعضها لحسن ألفاظها وعذوبتها، ومطلعها يقول:

خُذُوا مِنْ ثَنائِي مُوْجِبَ الحَمْدِ والشُّكْرِ
ومِنْ دُرِّ لفظي طَيِّبَ النَّظْمِ والنَّثْرِ
فيا راكباً يَسْري على بطنِ ضامرٍ
إلى الرُّومِ يَهْدي نحوَها طَيِّبَ النَّشْرِ
لَكَ الخَيْرُ إنْ وافيْتَ بُرسا فَسِرْ بها
رُوَيْدَكَ لاسْطَنْبولَ سامِيَةِ الذِّكْرِ
لَدى مَلِكٍ لا يبلغُ الوصْفُ كُنْهَهُ
شريفِ المَساعِي نافِذِ النَّهْيِ والأَمْرِ
إلى بايَزِيْدَ الخَيْرِ والمَلِكِ الَّذِيْ
حَمى بَيْضَةَ الإسلامِ بالبِيْضِ والسُّمْرِ
وجَرَّدَ للدِّيْنِ الحَنِيْفِيِّ صارِماً
أبادَ بِهِ جَمْعَ الطَّواغيْتِ والكُفْرِ

وجاهَــدَهُمْ فــي اللهِ حــقَّ جهــادِهِ

رجـاءً بمـا يَبْغـي مِـنَ الفَـوْزِ والأَجْـرِ

لــهُ هَيْبَــةٌ مِــلْءَ الــصُّدورِ وصَــوْلَةٌ

مُقَــسَّمَةٌ بــينَ المخافــةِ والــذُّعْرِ

أطــاعَ لــهُ مــا بــين رُوْمٍ وفــارِسٍ

ودانَ لـهُ مـا بـينَ بُـصْرى إلـى مِـصْرِ

هُــوَ البحــرُ إلاّ أنّــهُ دائــمُ العَطــا

وذلــكَ لا يخْلــو مِـنَ المَـدِّ والجَـزْرِ

هُــوَ البَــدْرُ إلاّ أنّــهُ كامــلُ الــضِّيا

وذاك حليفُ النَّقْصِ في مُعْظَمِ الـشَّهْرِ

هُــوَ الغيــثُ إلاّ أنَّ للغَيْــثِ مَــسْكَةً

وذا لا يــزالُ الــدَّهْرَ [يَنْهَــلُّ] بِــالقَطْرِ

هُــوَ الــسَّيْفُ إلاّ أنّ للــسَّيْفِ [نَبْــوَةً]

وفَــلاًّ وذا ماضــي العزيمــةِ والأَمْــرِ

سَليلُ بنـي عُثْمـانٍ كَـذا الـسّادَةُ الأُلـى

عَلا مَجْدُهُمْ فـوقَ الـسّماكَيْنِ والنَّـسْرِ

مُلـوكٌ كِـرامُ الأصـلِ طابَـتْ فُـروعُهُمْ

وهــل يُنْــسَبُ الــدينارُ إلاّ إلــى التِّبْــرِ

مَحَـوْ أَثَـرَ الكُفّـارِ بالـسَّيْفِ فاغْتَـدَتْ
بِهِـمْ حَـوْزَةُ الإسـلامِ سـامِيَةَ القَـدْرِ
فَيـا مَلِكـاً فـاقَ المُلـوكَ مكارِمـاً
فَكُـلٌّ إلـى أَدْنـى مَكارِمِـهِ يَجْـرِي
لَـئِنْ فُقْـتَهُمْ فـي رُتْبَـةِ المُلْـكِ والعُـلا
فـإنَّ اللَّيـالي بَعْـضُها ليلـةُ القَـدْرِ
فَـدَتْكَ مُلـوكُ الأرضِ طُـرّاً لأنهـا
سِـراراً وأنـتَ البـدْرُ فـي غُـرَّةِ الـشَّهْرِ
تَعالَيْـتَ عـنهمْ رِفْعَـةً ومكانَـةً
وذاتـاً وأوصـافاً تَجِـلُّ عـن الحَـصْرِ
سَـمَوْتَ عُلُـوّاً إذْ دَنَـوْتَ تواضـعاً
وقُمْـتَ بِحـقِّ اللهِ فـي الـسرِّ والجَهْـرِ
غَدَتْ بك أرضُ الـرُّومِ تزهـو مَلاحَـةً
وتَرْفُـلُ فـي ثَـوْبِ الجلالَـةِ والفَخْـرِ
أَلَـسْتَ ابْـنَ عثمـانَ الـذي سـارَ ذِكْـرُهُ
مَسِيرَ ضِـياءِ الشَّمْسِ فـي البَـرِّ والبَحْـرِ
يمينُـكَ يـروي عـن عَطـاءٍ ونائِـلٍ
ووَجْهُكَ يروي في البَشاشَةِ عـن بِـشْرِ

وإنِّـــي لَـــصَوّانٌ لِـــدُرِّ قلائِـــدِي
عـن الـدَّرِّ إلا فيْـكَ يـا مَلِـكَ العَـصْرِ

فَقابـــِلْ رعـــاكَ اللهُ شُـــكْري بِمِثْلِـــهِ
فإنَّـكَ للمعـروفِ مِـنْ أكـرمِ الـذُّخْرِ

فـلا زلْـتَ مَحْـرُوسَ الجنـابِ مؤيَّـداً
مـــن اللهِ بـــالتوفيقِ والعِـــزِّ والنَّـــصْرِ

فأجازه عليها ألف دينار، [ورتَّب] له في دفتـر الصرّ كل سنةٍ مئـة دينار، فكانت تصل إليه ثم إلى أولاده من بعده، وهي جديرةٌ بذلك، فقد مدح بعض الشعراء الخليفة المأمون فأجازه عليها بخمسين ألف دينار.

وكان للسلطان بايزيد عدة أولاد، وكان يتوقع العهد بالسلطنة لأكبر أولاده أحمد، فمال العسكر إلى ولده سليم، فتحارب سليم مع والده، ووقع بينهما القتال، ثم لما رأى ميل العسكر إلى ولـده سليم عهـد إليه بالسلطنة، وانتقل بايزيد إلى ـ رحمة الله تعالى ـ، ودُفن بالقسطنطينية، وعلى قبره الأنس والجلالة.

ثم تولى السلطان الأعظم سليم ولده، فاتح مصر والشام وسائـر ممالك العرب، في سنة سبع عشرة وتسع مئة، فأقام تسع سنين وثمانية أشهر، وتُوفي سنة ست وعشرين وتسع مئة.

وكان سلطاناً قهّاراً، وملكاً جبّاراً، كثير السفك، قوي البطش، كثير الفحص عن أخبار الناس، ولما فرغ من دفن والـده، خرج لقتال أخيـه

أحمد، فهرب عسكره وأسره، ثم أمر بخنقه، ثم قتل إخوته جميعاً وأولادهم، حتى تمَّ أمره.

وفي أيامه تزايد ظهور شأن إسماعيل شاه، واستولى على سائر ملوك العجم، وملك خراسان وأذربيجان، وتبريز وبغداد، وعراق العجم، وقهر ملوكهم، وقتل عساكرهم، بحيث قتل ما يزيد على ألف ألف.

وكان عسكره يسجدون له، ويأتمرون بأمره، وكان يدَّعي الربوبية، وقتل العلماء، وأحرق كتبهم ومصاحفهم، ونبش قبور المشايخ من أهل السنة، وأخرج عظامهم وأحرقها، وكان إذا قتل أميراً أباح زوجته وأمواله لشخصٍ آخر.

فلما بلغ السلطان سليم ذلك، تحركت همته لقتاله، وعدّ ذلك من أفضل الجهاد، فالتقى معه بقرب تبريز بعسكر جرار، وكانت وقعةً عظيمة، فانهزم جيش إسماعيل شاه، واستولى سليم على خيامه، وسائر ما فيها، وأعطى الرعية الأمان.

ثم أراد الإقامة بالعجم للتمكن من الاستيلاء عليها، فما أمكنه ذلك لشدة القحط، بحيث بيعت العليقة بمئتي درهم، والرغيف بمئة درهم، وسببه تخلف قوافل [الميره]، التي كان أعدها السلطان سليم لتتبعه في مكان الحاجة، وما وجد في تبريز شيئاً؛ لأن إسماعيل شاه عند انهزامه أمر بإحراق أجران الحب والشعير، فاضطر سليم للعود إلى بلاد الروم.

وفي أيامه كانت واقعة الغوري، وذلك أن السلطان سليماً لما رجع من غزو إسماعيل شاه وقتاله من شدة القحط، تفحص عن سبب انقطاع

قوافل [الميرة] وتخلّفها عنه، فأُخبر أن سبب ذلك سلطان مصر قانصوه الغوري؛ فإنه كان بينه وبين إسماعيل شاه محبة ومراسلات وهدايا.

فلما تحقق السلطان سليم ذلك، صمم على قتال الغوري أولاً، ثم يتوجه بعده لقتال إسماعيل شاه، فتجهز السلطان سليم، وتهيأ لقتال الغوري، وتوجه بعسكر إلى جهة حلب، عام اثنين وعشرين وتسع مئة.

فخرج قانصوه الغوري بعساكر عظيمة لقتاله، ووقع المصاف بمرج دابق، شمالي حلب، ورمى عسكر سليم عسكر الغوري بالبندق، ولم يكن في عسكر الغوري شيءٌ منه، فكانت الهزيمة على عسكر الغوري بعد أن كانت النصرة له أولاً، واستيلائه على الخيام، وفُقد الغوري تحت سنابك الخيل، كما مر عند ذكره.

وكان ذلك بمخامرة خير بك نائب حلب، والغزالي نائب الشام، بعد أن عهد إليهما السلطان سليم بتوليتهما مصر والشام، ثم بعد الوقعة أخليا له حلب؛ لأنهما معه في الباطن، فأقبل السلطان سليم إلى حلب.

وخرجوا إلى لقائه، يطلبون الأمان، ومعه المصاحف، يتلون جهاراً: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧]، فقابلهم بالإجلال والإكرام، ثم حضرت صلاة الجمعة، فلما سمع الخطيب خطب باسمه، وقال: خادم الحرمين الشريفين، سجد شكراً لله تعالى على أنه أهلَهُ لذلك.

ثم ارتحل للشام، بعد أن أخلاها له خير بك والغزالي، فخرجوا

للقائه، ودعوا له، فأكرمهم وأقام بها لتمهيد المملكة، وأمر بعمارة قبةٍ على الشيخ محيي الدين ابن العربي بصالحية دمشق، ورتَّب عليه أوقافاً كثيرة.

ثم توجه إلى مصر، فلما وصل خان يونس بقرب غزة، قُتل وزيره حسام باشا، ثم لما دخل مصر وقع بينه وبين طومان باي سلطان الجراكسة حروبٌ يطول ذكرها، وقُتل بها وزير السلطان سليم، يوسف سنان باشا، وكان مقداماً ذا رأي وتدبير، فأسف سليم عليه بحيث قال: أي فائدة في مصر بلا يوسف.

وقاتل طومان باي ومن معه من الأمراء قتالاً شديداً، وظهر لطومان باي شجاعة قوية، عُرف بها، وشهد له بها الفريقان، وأوقع الفتك بعسكر السلطان سليم، ولولا شدّ عضده بخير بك والغزالي ومكيدتهما ما شرب سليم من نيل مصر.

ثم لما ظفر بطومان باي أراد سليم أن يكرمه، ويجعله نائباً عنه بمصر، فعارضه خير بك، وخاف عاقبة فعله، وقال للسلطان سليم: إنك إن فعلت ذلك استولى على السلطنة ثانياً، وحسّن له قتله، فقتله وصلبه بباب زويله، ودفنه، كما أسلفناه.

ونزل السلطان في المقياس[1] مدة إقامته بمصر، بعيداً عن روائح القتلى، وحذراً من المكيدة، إلى أن مهدها.

---

(١) قال ياقوت الحموي: المقياس، عمود من رخام قائم في وسط بركة على شاطئ النيل، معجم البلدان: ٥/ ٢٠٦ (١١٤٨٠).

ثم تولى خير بك أمير الأمراء على مصر، وولى الغزالي على الشام، وولى بمصر القضاة الأربع، وهم: قاضي القضاة كمال الدين الشافعي[1]، وقاضي القضاة نور الدين علي بن ياسين الطرابلسي الحنفي[2]، وقاضي القضاة الدميري المالكي[3]، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن النجار الحنبلي[4].

واستولى على الأرض الحجازية وغيرها، ورتَّب الرواتب، وأبقى الأوقاف على حالها، ورتَّب لأهل الحرمين في كل سنةٍ سبعة آلاف إردب حب، ثم عاد للقسطنطينية وقد صرف غالب خزائنه، فأخَّر السفر عن بلاد العجم؛ ليجمع ما يستعين به على القتال.

---

(١) قال ابن العماد: قاضي القضاة، كمال الدين أبو اللطف محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الربعي الحلبي التادفي الشافعي، شذرات الذهب: ١٠/ ٤٤٩.

(٢) قال ابن العماد: نور الدين علي بن ياسين الطرابلسي الحنفي، الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، شيخ الحنفية بمصر، وقاضي قضاتها، شذرات الذهب: ١٠/ ٣٥١.

(٣) قال ابن العماد: برهان الدين إبراهيم الدميري المالكي، قاضي القضاة المالكية بالقاهرة، كان إماماً علامة، شذرات الذهب: ١٠/ ٨٦.

قلت: ويلاحظ أن وفاته في سنة ٩١٣هـ، قبل دخول السلطان سليم القاهرة في ٩٢٢هـ.

(٤) قال ابن العماد: ابن النجار، قاضي القضاة، شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز ابن علي الفتوحي الحنبلي، المعروف بابن النجار، الإمام العلامة، شيخ الإسلام، شذرات الذهب: ١٠/ ٣٩٦.

فظهر له في أثناء ظهره جراحةٌ، فعجزت عن علاجها الأطباء، واتسع الجرح، بحيث كانت توضع الدجاجة فيه فتذوب، وشوهدت معاليق أكباده من خلف ظهره، إلى أن تُوفي سنة ست وعشرين وتسع مئة، كما مر، سامحه الله تعالى وعفا عنه.

ثم تولى السلطان سليمان ابن السلطان سليم، سنة ست وعشرين وتسع مئة، وعمره نحو ست وعشرين سنةً، فأقام تسعاً وأربعين سنةً، وتُوفي سنة خمس وسبعين وتسع مئة.

وكان سلطاناً سعيداً عادلاً، فاضلاً جواداً ممدوحاً، مجاهداً في سبيل الله، ناظراً إلى الرعية بالعدل، لم يكن من بني عثمان مثله لا قبله ولا بعده.

[وصلت] سراياه إلى أقصى الشرق والغرب، وغزا بنفسه ثلاث عشرة غزوةً عظيمةً، وكان أيّان سَلَكَ مَلَكَ، وأنّا توجه فتح وفتك، مؤيداً في حروبه، مسدداً في آرائه، مسعوداً في وقائعه، وما زال منذ ولي قائماً بنصر الله، وإظهار العدل، وتأييد الشريعة، وتجديد دين هذه الأمة في القرن العاشر، إلى أن توفاه الله، وكانت أيامه من غرر الزمان.

وشرع أول توليته في قتل أولاده خوف الفتن والخروج عليه، فأرسل أمراً بإحضار ولده مصطفى بعد توجهه إلى تبريز لأخذ العجم، فأمر بخنقه، ثم تحيَّل على تحصيل ولده بايزيد، بعد أن وقعت فتن قُتل فيها نحو خمسين ألفاً، وعلى تحصيل بقية أولاده أورخان، ومحمود، وعبدالله، وعثمان، وبذل المال الجزيل على ذلك، حتى ظفر بهم،

وخنقهم وخنق أولادهم.

وفي أيامه أول توليته سنة سبع وعشرين وتسع مئة، عصى الغزالي الجركسي، أمير الأمراء بالشام، وادَّعى السلطنة، وخُطب له بالشام، وتوجه لمحاصرة حلب فحاصرها، ثم أدركه الشتاء فرجع للشام، فجهز السلطان سليمان إليه العساكر، فقُتل وحُمل رأسه إليه.

ثم مات أمير الأمراء بمصر خيربك بعده بسنة، بفرخ جمر، ودُفن بمدرسته الخيربكية، بدرب الوزير، ويُقال: مكث أياماً يُسمع صراخه بالقبر.

وفي سنة ثلاثين وتسع مئة، ورد مرسوم السلطان لأمراء مصر سراً بقتل أحمد باشا نائب مصر، وذلك بإغراء الوزير الأعظم إبراهيم باشا، لعداوة كانت بينهما، فوقع المرسوم بالمقدر في يد أحمد باشا فأخفاه، وأحضر الأمراء المكتوب لهم ذلك، وذكر لهم أن الأمر السلطاني ورد بقتلهم، فأذعنوا قهراً للأمر فقتلهم.

ثم ادَّعى السلطنة لنفسه، وأمر أن يُخطب باسمه على المنابر، وضُربت باسمه السّكة على الدراهم والدنانير، وصادر الناس، وجمع الأموال، وكان ممن حبسه للمصادرة: جانم الحمزاوي، ومحمود بيك.

فذهب أحمد باشا يوماً للحمام، فكسرا الحبس، وبرزا ونصبا سنجقاً سلطانياً، ونادياً: من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه، فاجتمع خلائق، وهجموا على أحمد باشا بالحمام، فتسلق من السطح، وهرب إلى شيخ عرب الشرقية ابن بقر، فخوفوه العاقبة، فسلَّمه لهم فقطعوا

رأسه، وعُلق بباب زويله، ثم بُعث [به] للسلطان.

وفي سنة ثمان وعشرين وتسع مئة، كانت غزوة رودس، توجَّه لها السلطان بنفسه، وأخـذ ما حواليهـا من قلاعٍ وحصون، وأحاط بهـا براً وبحراً، وكان حصنها في غاية الإحكام، يعجز الواصف عنه، فما استطاع المسلمون قربها من المدافع، فتأخرت عساكر البر قليلاً.

وأُمروا بسوق الرمل والتراب أمثال الجبال، وتترسوا به، وصاروا يقدمونـه قليلاً قليلاً، إلى أن وصل التراب إلى الخندق، وصار الكفار تحت المسلمين، فرموهم بالنار، [فاستغاثوا] وطلبوا الأمان، وشرطوا الخروج منها، [فاستولى السلطان عليها.

وخرج الكفار] فعملوا قلعة [مالطة]، وجعلوها في غاية الحصار[1]، وصاروا يؤذون المسلمين إلى الآن، وندم السلطان سليمان، حيث أعطاهم الأمان، وأرسل إليهم عمارة عظيمة وعساكر، فوقعت مخالفة أدت إلى انكسارهم، ولم يظفروا بالمـراد، وكـان في نفس المرحوم تدارك هذا الأمر، وإرسال عسكر آخر لأخذ مالطة، فما أمهله الأجل.

وفي سنة تسع وأربعين، خرج السلطان سليمـان لغـزوة العجم، فوصل إلى تبريز وأخذها، ولما دخل الشتاء رجع لجهة بغداد، فأخذها وما حولها من جميع البلاد [والجزائر] وواسط، وبنا على قبر الإمام أبي حنيفة قبةً ومدرسة، ثم توجه في الصيف للعجم، فهرب الشاه، وأرسل

---

(١) في المتن «في غاية الحصار» ولعل الصواب «في غاية الحصانة»، والله أعلم.

يطلب الصلح، فعقد له بعد أن فتح عراق العرب.

وفي آخر أيامه حدَّثته نفسه بغـزو مدينـة سكتوار ببلاد النصارى، وكان به مرض مؤلمٌ، فنهاه الطبيب عن الخروج، فلم يطعه وقال: أريد أن أموت غازياً، فتوجه لها، وكانت وقعة عظيمةً، ووقعةً مشهورة.

ولما اشتد الحصار والقتال، اشتد على السلطان مرضه، وأخذته غمرات الموت، وصار يبتهل إلى الله بتعجيل الفتح، فوقعـت النار في خزانـة بارود الكافرين، فحصل أمر مهـول من خسف قلعتهم، فتزاحم المسلمون، واغتنموا الفرصة، فأخذوا القلعة، واستولوا على المدينة، ووضعوا السيف في الكفار، فجاء البشير للسلطان سليمان، ففرح وقال: قد طاب الموت الآن، فتوفاه الله إلى الرحمة والرضوان.

وأخفى الوزير الأعظم محمد باشا موته، وقام بالأمر أتمَّ [قيام]، وأرسل سراً أحضر ولده السلطان سليم من مسيرة ستين يوماً، وأجلسه على التخت، ولم يقع لحسن تدبيره شيءٌ من الاختلال، وانتظمت بحسن سياسته الأحوال، لم يلِ [الوزارة] لبني عثمان مثله، وله خيراتٌ ومآثر.

ولمـا مات السلطان سليمان رثـاه الشعراء بكل لسان، فمن ذلك ما رثاه به المفتي الأعظم أبو السعود(١)، صاحب التفسير، وهي طويلة منها:

---

(١) قال ابن العماد: المولى أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، الإمام العلامة، شذرات الذهب: ١٠/ ٥٨٤.

أَصَـــوْتُ صـــاعِقَةٍ أَمْ نَفخَـــةُ الـــصُّوْرِ

فـالأرضُ قـد مُلِئَـتْ مِـنْ نَقْـرِ نـاقُوْرِ

أصــابَ مِنْهــا الــوَرى دَهْيــاءُ واهِيَــةٌ

وذاقَ مِنْهــا البَرايــا [صَـعْقَةُ] الطُّــورِ

تَهَـــدَّمَتْ بُقْعَـــةُ الـــدُّنْيا لِوَقْعَتِهـــا

وانْهَـدَّ مـا كـانَ مِـنْ دُوْرٍ ومِـنْ سُـوْرِ

فَمِــنْ كَئِيْــبٍ ومَلْهُــوفٍ ومِــنْ دَنَــفٍ

كــانَ بِسِلْـــسِلَةِ الأَحْـــزانِ مَأْسُـــورِ

فيـا لَـهُ مِـنْ حـديثٍ مـوحِشٍ [نَكِـدٍ]

يعافُـــهُ الطبـــع مَكْـــرُوهٌ ومَنْفُـــوْرُ

تاهَتْ عُيُونُ الوَرى مِـنْ هَـوْلِ وَحْـشَتِهِ

فَأَصْــبَحُوا مِثْــلَ مَجْنُــونٍ ومَــسْحُورِ

تَقَطَّعَــتْ قِطَعــاً مِنْــهُ القلــوبُ فَــلا

يَكــادُ يُوجَــدُ قَلْــبٌ غَيْــرُ مَكْــسُورِ

أَجْفــانُهُمْ سُــفُنٌ مَــشْحُونةٌ بِــدَمٍ

تجـري بِبَحْـرٍ مِـنَ العَبْـراتِ مَـسْجُورُ

أتـــى بِوَجْـــهِ نهـــارٍ لا ضـــياءَ لَـــهُ

كأَنَّـــهُ غـــارَةٌ [شِـيبَتْ] بِـــدَيْجُورِ

أمْ ذاكَ نَعْــيُ ســليمانِ الزَّمــانِ ومَــنْ
قَــضَتْ أوامِــرُهُ فــي كُــلِّ مَــأْمُورِ
[ومَــنْ مَــلا الــدنيا خَوْفــاً مهابَتُــهُ]
وسَـــخَّرَتْ كُــلَّ جَبّــارٍ وتَيْمُــورِ
لَــهُ وَقــائِعُ فــي الأَكْنــافِ شــائِعَةٌ
أَخْبارُهــا زِبَــرتْ فــي كُــلِّ طــامور
ورايَـــةٌ رُفِعَـــتْ لِلْمَجْــدِ خافِقَـــةٌ
تجــري علــى عَلَــمٍ بالنَّــصْرِ مَنْــشُور
يــا نَفْــسُ مــا لَــكِ فــي الــدُّنيا مُخَلِّفَــةً
مِــنْ بَعْــدِ رِحْلَتِــهِ عــنْ هــذِهِ الــدُّوْرِ
إذ كيــفَ تَمْـشِيْنَ فَــوْقَ الأرضِ غافِلَــةً
أَلَـــيْسَ جُثْمانُـــهُ فيهـــا بِمَقْبُـــورِ
فَلِلْمَنايـــــا مَواقِيْـــــتٌ مُقَـــــدَّرَةٌ
تــأتي علــى قَــدَرٍ في اللَّــوْحِ مَــسْطُورِ
ولــيسَ فــي شــانِها للنّــاسِ مِــنْ قــصَرٍ
ومَـــدْخَلٍ مـــا بِتَقْـــدِيْمٍ وتَـــأْخِيْرِ
يـــا نَفْـــسُ فَاتَّئِـــدِي لا تَهْلِكِـــي أَسَــفاً
فأنــتِ مَنْظومــةٌ فــي سِــلْكِ مَعْــذُورِ

إذْ [لَـسْتِ] مَـأْمُوْرَةً بالمُـسْتَحِيلِ ولا
بمـا سـوى بَـذْلِ مَجْهُـودٍ ومَيْـسُورِ
إنَّ المنايـــا وإنْ عَمَّـــتْ مُحَرَّمَـــةٌ
علـى شَـهِيْدٍ جَمِيْـلِ الحـالِ مَبْـرُورِ
مُرابــِطٍ فـــي ســبيلِ اللهِ مُقْــتَحِمٍ
مَعـارِكَ الحَتْـفِ بالرضْـوانِ مَـأْجُورِ
مـا مـاتَ بـلْ نـالَ عَيْـشاً باقيـاً أَبَـداً
عـن عَـيْشِ فـانٍ بِكُـلّ الـشَّرِّ مَغْمُـورِ

ذكر وزراء السلطان سليمان بمصر، وهم خمسة عشر:

أولهم مصطفى باشا: تولى سنة ثمـان وعشرين وتسع مئة، فأقام تسعة أشهر وخمسة عشر يوماً.

ثم أحمد باشا: فأقام نحو سنة، ثم تسلطن وقُتل كما مر.

ثم قاسم باشا: تولى سنـة إحدى وثلاثين وتسع مئة، فأقام تسعة أشهر وأربعة وعشرين يوماً.

ثم إبراهيم باشا: سنة اثنين وثلاثين وتسع مئة، فأقام نحـو ثلاثـة أشهر، فأحاط بأحوال مصر، ورتَّب الديوان.

ثم سليمان باشا: سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة، فأقام تسع سنين وأحد عشر شهراً، وله عدة عمارات بمصر، وبنى جامع سارية بالقلعة،

والجامع بشاطئ النيل، ببولاق القاهرة، والمدرسة الحنفية بخط جامع قوصون، وشرط أن يكون مدرسها أعلم الحنفية من العرب، وبنا مسجداً بثغر رشيد، وله خيراتٌ كثيرةٌ، وتوجَّه بعد ذلك لفتح الهند.

ثم خسرو باشا: سنة إحدى وأربعين وتسع مئة، فأقام سنة واحدة وعشرة أشهر.

ثم سليمان باشا المتقدم: بعد عوده من الهند، فأقام سنة واحدة ونحو خمسة أشهر.

ثم داود باشا: سنة خمس وأربعين، فأقام إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، ودُفن بحضرة الإمام الليث بمصر.

ثم علي باشا: سنة ست وخمسين، فأقام أربع سنين وستة أشهر.

ثم محمد باشا: سنة إحدى وستين، فأقام ثلاث سنين.

[**ثم اسكندر باشا**: سنة ثلاث وستين، فأقام ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف.

ثم علي باشا الخادم: سنة ست وستين، فأقام سنة وأربعة أشهر].

ثم مصطفى باشا: سنة سبع وستين، فأقام ثلاث سنين ونحو أربعة أشهر.

ثم علي باشا: **سنة إحدى وسبعين**، فأقام سنتين وثلاثة أشهر.

ثم محمود باشا: سنة ثلاث وسبعين، فأقام سنةً ونحو ثمانية أشهر، وهو آخر وزراء السلطان سليمان بمصر.

وللسلطان سليمان مآثر باقية، وآثارٌ محمودة، وخيرات جزيلة:

فمنها: صدقات الجوالي، وهو ما يؤخذ من أهل الذمة، على سبيل الجزيـة، وجعلها وظائـف للعلماء والصلحاء، وكـان يُخرَج منها شيءٌ [قليلٌ جداً] في أيام الجراكسة لبعض المشايخ.

ومنها: حصون ثغـور الإسلام ومفازاتها، والأماكن الشريفة؛ كسور القدس، وسور المدينة، وقلعة العريش، وغير ذلك من أبراج وحصون.

ومنها: إجراء العيون، ومن أعظمها عين عرفات إلى مكة المشرفة، بعد انقطاع عين حنين التي أجرتها زبيدة زوجة هارون الرشيد، وبلغت نفقتها فيها ألف ألف وسبعمئة ألف مثقال ذهب.

فلما تم عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها، وأخرجوا دفاترهم للحساب، ليخرجوا من عهدة ما تسلَّموه من خزائن الأموال، وكانت في قصرٍ مشرفٍ على الدجلـة، فأخـذت منهم الدفاتر، ورمتها في البحر، وقالت: تركنـا الحساب ليوم الحساب، فمن فضل عنده شيءٌ من بقيته فهو له، ومن بقي له عندنا شيءٌ أعطيناه، وألبستهم الخلع والتشاريف.

وأمرت أيضاً بإجـراء عين وادي نعمـان، إلى عرفـة، ثم منـه إلى مزدلفة، ثم منه إلى جبلٍ خلف منى، ثم ينصب إلى بئـر عظيمـة مطوية بالأحجار، تُسمى عين زبيدة، إليها ينتهي عمل هذه العين، ثم تهدَّمت قناة عين حنين، وعين عرفات، لطول الزمان، فكانت الملوك تجددها.

وممَّن جدَّد عين حنين: شريف مكة حسن بن عجلان، ثم انقطعت،

فجهد الناس العطش، فجددهـا صاحب مصر المؤيد شيخ، ثم جددها بعد ذلك قايتباي، وجدد أيضاً عين عرفة، وعمّر عين خليص، ثم بعد ذلك جدد السلطان الغوري عين حنين، سنة ست عشرة وتسع مئة.

ثم انقطعت في أوائل الدولة العثمانية، وانقطعت عين عرفات أيضاً، وجهد الناس بمكة العطش، وكـان الحجاج يحملون المياه من الأماكن البعيدة إلى عرفات، بحيث كانت القربة الصغيرة تُباع في بعض الأحيان بدينار.

فأمر السلطان سليمان في سنة إحدى وثلاثين وتسع مئة، بتجديد عين حنين وعرفات فجُدِّدا، وكثر الماء بعد ذلك بعرفات وبمكة، واستمرت عين حنين جاريـة إلى مكـة، لكنها تقلُّ تارة وتكثر أخرى، بحسب قلة الأمطار وكثرتها.

وعين عرفات تجري من نعمان إلى عرفات بكثرة، إلى أن صارت عرفـات بساتين، ثم قلَّت الأمطار في سنـة ستين وتسع مئة، وانقطعت العيون إلا عين عرفات، وحصل لأهل مكة الجهد.

فلما بلغ السلطان سليمان ذلك، أرسل يفحص عن إجراء العيون إلى مكة، فاجتمع الرأي أن أقـوى العيـون عين عرفات، وأن أعلامهـا ظاهرة إلى بئر زبيدة خلف منى، وغلب على ظنهم أنهـا مبنية أيضاً إلى مكة، لكنها درست ونُسيت استغناءً عنها بعين حنين.

ثم حرزوا بعد أن ذرعوا الأرض، ووجدوها خمسة وأربعون ألف

ذراع بذراع البنّائين، وحرزوا أن المصروف على ذلك يبلغ ثلاثين ألف دينار، ثم عرضوا ذلك وأرسلوه إلى حضرة السلطان في سنة تسع وستين وتسع مئة.

فطلبت بنت السلطان أن يكون المصروف من عندها، تتشبه بزبيدة زوجة هارون الرشيد فأُجيبت، وأرسلت خمسين ألف دينار، بزيادة عشرين ألفاً.

وعُين لهذه الخدمة دفتردار مصر، إبراهيم بن تغري بردي، فتوجه إلى مكة، وكانت مماليكه القائمين بخدمته نحو أربع مئة مملوك في غاية الحسن والجمال، وكتب نحو ألف نفسٍ من العمال والبنّائين والمهندسين والحدادين، وأرسل أخذ من مصر وبلاد الصعيد، ومن الشام وحلب، والروم واليمن، طوائف بعد طوائف من المهندسين وخدام العيون والآبار، والحدادين والقطاعين.

وقدم على ذلك بعزم وهمة، ظاناً منه أنه يفرغ من ذلك فيما دون سنة ويرجع للسلطان لينال بذلك أعلى المناصب، وليس الأمر كما ظن، فشرع إلى أن اتصل عمله بعمل زبيدة إلى البئر التي انتهى عملها إليها، ثم لم يُوجد بعد ذلك للقناة رسم ولا أثر، بل وجد الأرض صخراً في غاية الصلابة.

فضاق ذرعاً، وعلم أن زبيدة إنما تركت ذلك اضطراراً لا اختياراً، وعدلت إلى عين حنين لصلابة الحجر، وطول مسافة ما يجب قطعه؛ فإنه يحتاج من بئر زبيدة إلى نقر تحت الأرض في الحجر الصوان، طوله

فوق الألف ذراع بذراع البنّـائين، حتى يتصل إلى عين حنين، ثم يصل إلى مكـة، ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الأرض؛ فإنـه يحتاج في النزول إلى خمسين ذراعاً في العمق.

وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه؛ حفظاً لناموس السلطنة، وما وجد حيلةً غير أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصلوا للحجر الصوان، ثم يُوقد عليه بالنار، بمقدار مئة حملٍ من الحطب الجزل ليلة كاملة، في مقدار سبعة أذرع في عرض خمسة من وجه الأرض.

والنار ما تعمـل إلا في العلو، لكنها تعمل عملاً يسيراً من جانب السفل، فيلين الحجر فيكسرونه بالحديد، إلى أن يصلوا للحجر الصلب، فيوقد عليه كذلك، فاستمروا إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة، فصار يُجلب من المسافات البعيـدة، فغلا سعر الحطب، وضاق الناس بذلك.

وصار كلما فرغ من المصروف يُرسل يطلب آخـر، إلى أن صرف أكثر من خمسمئة ألف دينار من خزائن السلطنة، وتعب إبراهيم الدفتردار لذلك، وذهبت أمواله وخدامه ومماليكه وأولاده وهو يتجلد.

وغرق لـه مركبٌ فيـه ما يساوي مئـة ألف دينار، ثم مات له طفلٌ نجيب، وكان خلفـه بمصر، فاحترق عليـه كثيـراً، ثم مات لـه ولـدان مراهقان نجيبان، فأخذا بمجامع قلبه، وما زال في العمل إلى أن ذهبت قواه، وظهر بلاه، وتوفاه الله، رحمه الله.

فأقيم مقامه الأمير قاسم أمير جدة، قائم مقام، أقامه السيد حسن صاحب مكـة، ثم أرسل يعرض ذلك على حضرة السلطـان سليمـان، فوجدوه قد مات، وتولى ولده السلطان سليم، فعين لخدمتها محمد بيك دفتردار مصر، وكان من أعيان الصناجق، له خبرةٌ وعقلٌ تام، فبذل في ذلك نفسه وماله.

ثم بعد ذلك بمدة مات، فأقيم مقامه أمير جدة المذكور، ثم عُرض ذلك على السلطان سليم، فورد الأمر باستمراره ومباشرته العمل، وأن يكون القاضي حسين ناظر المسجد الحرام ناظراً على ما بقي من العمل.

ثم مات الأمير قاسم، سنة تسع وسبعين وتسع مئة، ثم أرسلوا عرض الأمر على السلطان، فورد الأمر بأن القاضي حسين المذكور يباشر هذا العمل، فشرع فيه بجدٍ واجتهاد، وحسن رأيٍ وتدبير، وساعدته السعادة والإقبال، فكمل له المقصود فيما دون خمسة أشهر، بعد أن عجزوا عن إتمامه قريباً من عشرة أعوام.

ووصل الماء إلى مكـة في شهـر ذي القعـدة، سنـة تسع وسبعين وتسع مئة، ففرح الناس بذلك، وأرسلوا البشائر للسلطان سليم، فأنعم بمزيد الإنعامات والترقيات لسائر المباشرين لهذه الخدمة.

وحصل للقاضي حسين الترقيـات العظيمة، وجُهـزت إليـه أنواع الخلع الشريفة الفاخرة، وخُوطب من قِبَل السلطنـة الشريفـة، فصارت هذه العين العامة النفع بمكة من حسنات المرحوم السلطان سليمان.

وبنى أربع مدارس بمكة المشرفة على مذاهب فقهاء أئمة المذاهب

الأربعة، غير أنهـا لم تكمل إلا في أيام ولـده السلطان سليم، فقرر في المدرسة السليمانية المالكية القاضي حسين، بمئة عثماني، وفي الحنفية الشيخ قطب الدين، وفي الشافعية بعض علماء الشافعية، ولم يُوجد في الحنابلة من يكون أهلاً بها في مذهب الإمام أحمد، فعُدل عنه إلى علم الحديث، وجُعلت مدرسة الحنابلة دار الحديث، كل مدرسة من الثلاثة بخمسين عثمانياً كل يوم.

ثم تولى السلطان سليم ولد السلطان سليمان: سنة أربع وسبعين وتسع مئة، فأقام ثمان سنين وشهراً واحـداً وأربعـة عشر يومـاً، وتُوفي برمضان، سنـة اثنتين وثمانين وتسع مئـة، وكان ملكاً عظيماً، وسلطاناً حليماً، شهماً مُطاعاً، أحيا سُنَّة الجهاد، وجدّ في فتوح البلاد.

وفي أيامه افتتح جزيرة قبرس، وكان أول من افتتحها أمير المؤمنين معاوية في خلافته، ثم افتتحها الملك الأشرف برسباي ـ كما مـر عنـد ذكـره ـ وما زالـوا يؤدون الجزيـة من حينئـذٍ، إلى أن أخـذوا في المكر والخداع، وصاروا يقطعون الطريق في البحر على المسلمين، ويساعدون أهل الحرب عليهم.

فاستفتى السلطـان سليم فيهم المفتـي أبـا السعـود، فأفتاه بنقض عهدهم، وجواز قتالهم، فجهز إليها مصطفى باشا بعساكر عديدة، وكانت غزوة عظيمة، فظفر الباشا بملكها، فركب وحمل غاشية السرج، وأمره أن يمشي قدامه كالخادم، ثم أمر بضرب عنقه.

وفي أيامه استرجع اليمن من العُصاة الذين استولوا عليها، بعد أن

كانت في يد والده السلطان سليمان، فجهز سليم إليها العساكر العظيمة، صحبة سنان باشا، وكان ذا رأي وتدبير وإقدام، فاستنقذها من أيديهم بعد وقائع وأمور طويلة، وفي ذلك يقول بعضهم أبياتاً كثيرة:

ومـــا يَمَـــنٌ إلاّ مَمالِـــكُ تُبَّـــعٍ
وناهِيْكَ مِـنْ مُلْـكٍ قـديمٍ ومِـنْ فَخْـرِ
وقــد مَلَكَتْهــا آلُ عثمــانَ إذ مَـضَتْ
بنـو طـاهِرٍ أهـلُ الـشَّهامَةِ والـذِّكْرِ
فَهَـلْ يَطْمَـعُ الزَّيْـدِيُّ فـي مُلْـكِ تُبَّـعٍ
ويَأْخُـــذُهُ مِـــنْ آلِ عُثْمـــانَ بـــالمَكْرِ
أَبَـى اللهُ والإسـلامُ والـسَّيفُ والقَنـا
وسَـيْرُ أميـرِ المـؤمنينَ أبـي بكـرِ

وفي أيامه كان فتح حلق الـواد وبلاد تونس الغرب، بعـد استيلاء النصارى عليها؛ بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين الغرب من آل حفص، فصار بعضهم يتقوّى على بعض بالإفرنج، وأطمعوهم في بلاد المسلمين.

فاستولوا عليها، وتمكنوا منهـا، وحصنـوا الحصون، وأحكمـوا القلاع، بحيث أيس المسلمون من فتحها، وصاروا تحت حكم الإفرنج، وأخذوا مملكة تونس، ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال، وسبوا النساء والأولاد.

فلما بلغ السلطان سليم ذلك، أرسل مئتي غراب مشحونة بالأبطال والمدافع وآلـة الحرب، وصحبة ذلك سنان باشا، وعلي باشا، وكانت غزوة مشهورة، ووقعة معدودة، من أعظم غزوات [بني عثمان]، يحتاج تفصيلها لمؤَلَّف، فنصر الله المسلمين، بعـد أن قُتل منهم نحـو خمسة آلاف، مع الحصار المديد، والقتال الشديد.

ومن العجيب أن الإفرنج كانت بَنَتْ هناك [حصناً] حصيناً، وقلعةً منيعة، أقاموا في استحكامها، وإتقان بنائها ثلاثاً وأربعين سنةً، فافتتحها المسلمـون صحبـة الوزيـر المذكـور، في ثلاث وأربعين يومـاً من أيام محاصرتها، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسع مئة.

ثم أخرب الوزير القلاع والحصون، ولم يُبق لها رسماً، ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنه، فلم يُمهله الأجل ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفي أيامه جدَّد عمارة المسجد الحرام، وأمر أن يُزاد لأهل الحرمين في كل سنـةٍ سبعـة آلاف إردب من الحـب، وغيـر ذلك من الصدقات والمآثر.

ذكر وزرائه بمصر، وهم أربعة وأولهم:

[سنان باشا]: تولى مصر سنة خمس وسبعين وتسع مئة، فأقام نحو تسعة أشهر، وتوجَّه بعد لفتح اليمن، كما مر.

ثم جركس اسكندر باشا: سنـة ست وسبعين، فأقام سنتين وستة أشهر وسبعة أيام.

ثم [سنان باشا]: بعد رجوعه من اليمن سنة تسع وسبعين، فأقام سنةً واحدة وعشرة أشهر، وله عدة مساجد وعمائر لم تكن لأحد من بني عثمان.

ثم حسين باشا: سنة إحدى وثمانين، فأقام سنةً وتسعة أشهر.

ثم تولى السلطان مراد ولد سليم: سنة اثنتين وثمانين وتسع مئة، فأقام إحدى وعشرين سنةً، وتُوفي سنة ثلاث وألف، وكان ملكاً مقداماً، وسلطاناً ضرغاماً، عالي الهمّة، عظيم الشأن، وبَعُـد صيته في العالم، وكان أعظم سلطان خفقت عليها البنود، وأكبر ملك جنّد الجنود.

وفي أيامه تحركت عساكر المجر، فجهز لها الجيوش الكثيرة، وفتح منها المدن الكبيرة.

ذكر وزرائه بمصر، وهم ستة أولهم:

مسيح باشا: تولى بمصر سنة اثنتين وثمانين وتسع مئة، فأقام خمس سنين وخمسة أشهر ونصف، وكان سفاكاً للدماء، قطع دابر المفسدين من أرض مصر، وكان لا يقبل الرشوة، وعمّر المدرسة المسيحية، بباب القرافة.

ثم حسن باشا: تولى مصر سنة ثمان وثمانين وتسع مئة، فأقام سنتين وعشرة أشهر، وكان جماعاً للمال، أحيا الرشوة بعد موتها.

ثم إبراهيم باشا: تولى مصر سنة إحدى وتسعين وتسع مئة، فأقام سنةً وخمسة أشهر، ولما قدم مصر فتّش على حسن باشا، ونصب عنه

وكيلاً في الدعاوى عليه، ثم ذهب بنفسه إلى جميع أقاليم مصر، حتى أتى إلى الصعيد الأقصى، ثم عاد إلى مصر بغاية العزة.

ثم سنان باشا الدفتردار: تولى مصر عام اثنين وتسعين وتسع مئة، فأقام ستة أشهر وعشرين يوماً.

ثم أويس باشا: تولى مصر سنة أربع وتسعين وتسع مئة، فأقام خمس سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام، ثم قام عليه العسكر، وقتلوا جماعه، وتمرد العسكر غاية التمرد.

ثم حافظ أحمد باشا: تولى مصر سنة تسع وتسعين وتسع مئة، فأقام أربع سنين، وكان محباً للعلماء والفقراء، صاحب رأي وتدبير.

ثم تولى السلطان محمد ولد السلطان مراد: في شهر رمضان، سنة ثلاث بعد الألف، فأقام تسع سنين إلا شهراً، وتُوفي سادس رجب، سنة اثني عشر وألف، وأمر في يوم ولايته بقتل جميع إخوته، وكانوا تسعة عشر.

وفتح في أيامه مدينة اكرى بعد قتال شديد، وانهزمت عساكر المسلمين، ثم تدارك الله بلطفه وفتحها، وكانت غزوة عظيمة.

وفي أيامه ظهرت الخوارج بجهات حلب، وما زالت الأمور في التخبيط، إلى أن خرج ابن جنبلاط، وادّعى السلطنة، ونهب حمص وحماة والشام، واضطربت الأحوال.

ذكر وزرائه بمصر، وهم أربعة أولهم:

[قرط باشا]: تولى مصر سنة ثلاث وألف، فأقام سنة واحدة وثمانية أيام.

ثم السيد محمد باشا: تولى مصر في شهر شوال، سنة أربع وألف، فأقام سنتين وشهرين وعشرين يوماً، وكان كثير النوال.

وفي أيامه جدّد عمارة الجامع الأزهر، ورتَّب لـه العدس، يُطبخ في كل يومٍ للفقراء، [وعمّر] المشهد الحسيني، ثم قام عليـه العسكر، وطلبوا قتله، وقتلوا جماعةً من الأكابر.

[ثم خضر باشا: تولى مصر سابع عشري ذي الحجـة، سنة ست وألف، فأقام ثلاث سنين واثني عشر يوماً، ثم قام عليه العسكر، وقتلوا جماعةً من الأكابر].

ثم علي باشا: تولى مصر في صفر، سنة عشر وألف، فأقام سنتين ونحو شهرين، وكان شجاعاً كريماً، سفاكاً للدماء.

وفي أيامه كان الغلاء الشديد، بحيث بيعت ويبـة[1] القمح بستة وثلاثين نصفاً، ثم وقع بعده الطاعون العظيم، ثم قام عليه العسكر بمقام سيدي أحمد البدوي، ثم سلم الله تعالى.

ثم تولى السلطان أحمد ولد محمد: يوم الأحد رابع عشر رجب، عام اثني عشر وألف، فأقام أربـع عشرة سنةً وأربعـة أشهر، وتُوفي في شهر ذي القعدة، سنة ست وعشرين وألـف، وبلغ من العمر نحو ثمان

---

(١) الويبة: مكيال للحبوب مقداره (٢٥) كيلو جرام.

وعشرين سنةً، وخلَّف أربعة ذكور؛ عثمان ومحمد ومراد وبايزيد.

وكان ـ رحمه الله ـ ملكاً عظيماً، وسلطاناً جسيماً، صاحب قوةٍ مفرطة، وشجاعةٍ عظيمة، عالي الهمة، عظيم الشأن، وكان من أجلِّ ملوك بني عثمان، قتل من الوزراء الصدور أربعة عشر وزيراً.

وشرع في قطع دابر الخوارج، فقطعهم عن آخرهم، وانتزع حلب من يد ابن جانبلاط، وحُمل إليه أسيراً، وأرسل وزيره الأعظم علي باشا إلى المجر بالعساكر الإسلامية، فمات متوجهاً، فأُقيم مراد باشا مقامه، فأوقع الصلح بين السلطان وبين المجر لمدة عشرين سنة.

وكان أحمد محباً لعمارة الحرمين الشريفين، وأنشأ أوقافاً من قرى مصر على خدام الحرم الشريف، وجعل مناطق من الفضة المحلاة بالذهب للكعبة الشريفة؛ صوناً لها عن الهدم، وأرسل شبابيك فضة محلاة بالذهب، للحجرة الشريفة، وفصاً من الألماس يساوي ثمانين ألف دينار، ليُجعل فوق الكوكب الدري.

ثم عزم على عمارة الحرم النبوي على حكم الحرم المكي، وأرسل البنّائين والمهندسين لذلك، فلم يُمهله الأجل، رحمه الله.

وفي أيامه بنى بالقسطنطينية جامعاً عظيماً، لم يُر مثل، ولا حُسْنِ شكله، وهادته ملوك الأقاليم بالتُّحف من قناديل الذهب وغيرها، لتعلَّق فيه، وبلغت مصاريف نفقته نحو نفقة عمارة جامع بني أمية بدمشق؛ فإنه يُقال إن الوليد بن عبد الملك، الخليفة الأموي، أنفق عليه أربع مئة

صندوق من الذهب، في كل صندوق أحد عشر ألف مثقال ذهب.

ذكر وزرائه بمصر، وهم ستة أولهم:

إبراهيم باشا: استولى على مصر رابع عشري ذي الحجة، عام اثني عشر وألف، فأقام أربعة أشهر وسبعة أيام، ثم قام عليه العسكر، لمّا توجه لقطع جسر أبي المنجا، بعد أن تحالفوا عليه بالقرافة، ثم هجموا عليه وهو في شبرا، فضربه شخصٌ منهم بالسيف على وجهه، ثم قطعوا رأسه، وطيف به في القاهرة، ثم عُلق بباب زويله، وكان أمراً مهولاً، لم يُعهد لوزيرٍ بمصر قبله.

ثم محمد باشا الكرجي: استولى على مصر في رجب، سنة ثلاث عشرة وألف، فأقام سبعة أشهر واثني عشر يوماً، وكان عنده حُسن سياسة وتدبير، وجدّ في الفتك بقتلة إبراهيم باشا الوزير، فقتل منهم نحو مئتي شخص، ولو طالت أيامه لاستأصلهم.

ثم حسن باشا: استولى على مصر مستهل ربيع الأول، بعد عزله من اليمن سنة أربع عشرة وألف، فأقام سنتين إلا شهراً، وجدَّد صحن الجامع الأزهر، وبنى رواقاً لطيفاً تجاه رواق اليمن.

ثم محمد باشا: قاتل الجند، استولى على مصر في صفر، سنة ست عشرة وألف، فأقام أربع سنين وأربعة أشهر واثني عشر يوماً، ثم جدّ في شأن قتلة إبراهيم باشا، وإبطال ظلمهم، فقاموا عليه، وتحالفوا بمقام سيدي أحمد البدوي، وارتفعت كلمتهم، ولولا [جودة] تدبيره لفتكوا به.

فجـرّد لهم العساكـر والعربـان، فظفـروا بهم، وقتلوا منهم نحـو الخمسين، وأسروا الباقين، ودخلوا بهم القاهرة، وكان يوماً مشهوداً، ثم أمر الباشا بقتل أكابرهم، نحو ثلاث وعشرين، وقتل منهم أيضاً نحو الخمسين، وأمر بنفي الباقين إلى اليمن، ثم أمر بقطع الأرض التي كانوا يمشون عليها، فقطع من أرض أزقة مصر نحو ذراع.

ثم محمد [باشا الصوفي]: استولى على مصر ثاني عشري شعبان، سنة عشرين وألف، فأقام نحو أربع سنين.

ثم أحمد باشا الدفتردار: تولى مصر سادس ربيع الثاني، سنة أربع وعشرين وألف، فأقام سنتين وعشرة أشهر واثني عشر يوماً، وكان سيوساً قليل السفك للدماء، وكان يُحب الفقراء.

ثم تولى السلطان مصطفى أخو السلطان أحمد: ثاني يوم موته، ثالث عشري ذي القعدة الحرام، سنة ست وعشرين وألف، فأقام ثلاثة أشهر وعشرة أيام، ثم خُلع ليلاً، يُقال وهو نائمٌ عند والدته، ليلة الأربعاء، ثالث ربيـع الأول، سنـة سبع وعشرين وألـف، بعـد أن استبشر الناس بولايته، لما كان يُحكى عنه من الصلاح، وتحري العدل.

وانخرمت به قاعدة سلطنة بني عثمان من ثلاثة أوجه:

أولها: أن كل من تولى منهم السلطنة فإنما هو ابن السلطان الذي قبله، وهذا أخوه.

ثانيها: أن من تولى منهم لم يُعهد خلعه إلا بموته، وهذا خُلع في حياتـه.

ثالثها: أن كل من تولى منهم تطول مدته، وأقلها ثمان سنين وشيء، وهذا لم تطل مدة ولايته.

وكان قد ولي مصر مصطفى باشا: سنة سبع وعشرين وألف، غير أنه لم يدخل مصر إلا بعد خلعه، وتولية السلطان عثمان الآتي ذكره، فأقام بمصر نحو ستة أشهر، ثم قام عليه العسكر، وعلى جماعةٍ آخرين معه، فقتلوا بعضهم، واختفى الباقون في ساعةٍ واحدة بعد أن كانوا في غاية المنعة والعزة والنعيم.

يتذكر بهم المتفكر قول رب العالمين: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥]، ثم عزل مصطفى باشا المذكور في ثالث المحرم، سنة ثمان.

ثم جعفر باشا، دخل مصر ضحوة نهار الإثنين، عاشر شهر ربيع الأول، واستبشرت أهل مصر بقدومه، فالله يجعل قدومه مبارك على الرعية، فأقام بمصر ستة أشهر ثم عزل، في أواخر شعبان، سنة ثمان وعشرين وألف.

ثم مصطفى باشا، دخل مصر يوم السبت، الثامن والعشرين من رمضان، سنة ثمان وعشرين، فأقام سنةً إلا قليلاً، ثم عُزل في عاشر رمضان، سنة تسع وعشرين وألف.

وكان قد قتل مصطفى الصنجق، بعد أن عظم أمره، وخيف على السلطنة من خروجه، واستيلائه على مصر، ولم ينتطح في قتله شاتان، لحسن تدبيره في قتله.

ثم حسين باشا، دخل مصر نهار الأربعاء، العشرين من رمضان، سنة تسعة وعشرين وألف، ولم يُعهد أسرع مجيئاً منه، لأنه ليس بين ورود خبره ودخوله مصر سوى عشرة أيام، وأمر بالترسيم[1] على مصطفى باشا في القلعة، وعمل حسابه، وأخذ منه للسلطنة مالاً جزيلاً.

ثم تولى السلطان عثمان ولد السلطان أحمد: سادس عشر سلاطين آل عثمان، وهو مراهق، جلس على تخت الملك في سادس ساعةً من ليلة الأربعاء، بعد خلع عمه مصطفى، ثم أمر بوضعه في مكان حسن، وأمر بإكرام والدته، ووضع إخوته في موضعٍ لا يدخل عليهم أحد.

وفي أيامه أواخر سنة سبع، طلع في السماء قُبيل الفجر عمود أبيض مستطيل، كأطول منارة، مدة ليالي، ثم طلع بعده فوراً نجمٌ له ذنبٌ يضيء مستطيل جداً، وأرجف به المنجمون بأراجيف، وزعموا وقوع أمور مهولة، وكذبوا والله، وصدق القائل:

أَطُلاّبَ النُّجُومِ أَحَلْتُمُونا
على عِلْمٍ أَرَقَّ من الهَباءِ
كُنُوزُ الأرضِ لم تَصِلُوا إليها
فكيف وصلتُمُ عِلْمَ السَّماءِ

فالله تعالى يُصلح أحوال المسلمين، ويجعل عاقبتهم إلى خير، وأن

(١) الترسيم: بمعنى الحجز والاعتقال.

يُصلح حال مولانا السلطان، وحال رعيته، وأن يجعل السلطنة الإسلامية في هذا البيت، بدوام الملة المحمدية والشريعة الأحمدية، جدّد الله لها نصراً، ورفع لها قدراً، وأعلى لهم مقاماً وذكراً. آمين. والحمد لله رب العالمين.

❒ ❒ ❒

خَاتِمَة

قد أحببت أن أذكر هنا موعظة ونصيحة، عملاً بقول النبي ﷺ الوارد في الصحيح: «الدِّينُ النَّصيحةُ، الدين النصيحة، الدين النصيحة، قالوا: لِمَنْ يا رسول الله؟ قال: للهِ ولِكِتابِهِ ورَسُولِهِ ولأئِمَّةِ المسلمين وعامَّتِهِمْ»(١).

وفي مسلمٍ: قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ يَرْضى لَكُمْ ثلاثاً، أن تعبُدُوه، ولا تُشْرِكوا به شيئاً، وأن تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً ولا تَفَرَّقوا، وأن تُناصحوا من ولاه الله أمركم»(٢).

وقال ابن عقيل في الفنون(٣): من أعظم منافع الإسلام، وآكد قواعد الأديان: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتناصح، فهذا أشق

---

(١) رواه مسلم (٢٠٥)، والنسائي (٤٢٠٠).

(٢) رواه مسلم (٤٥٧٨).

(٣) قال الذهبي: ابن عقيل، الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي ابن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري الحنبلي، المتكلم صاحب التصانيف، سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٤٣ (٢٥٩).

ما يحمله المكلف؛ لأنه مقام الرّسل، حيث يثقل صاحبه عن الطباع، وتنفر عنه نفوس أهل اللذات، وتمقته أهل الخلاعة.

إذا تقرر هذا: فاعلم أنه لا يجوز تعدد الإمام، فلا يحلُّ نصب إمامين في وقت واحد، وإن تباعد إقليماهما، لما يترتب على ذلك عند منازعتهما من الفتن، بخلاف تعدد الرسل لعصمتهم.

قلت: فلو تغلَّب كل سلطان على ناحية من البلاد كزماننا هذا، فحكمه كالإمام في الأحكام الآتية، وهي أنه يلزم الإمام حفظ الدين، وتنفيذ الأحكام، وحفظ الرعية، وإنصاف بعضهم من بعض، وإقامة الحدود، وتحصين الثغور، وجهاد من عاند الإسلام، وجباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع، وتقدير العطاء المستحق في بيت المال بلا سرف، واستكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء فيما [يفوضه] إليهم من الأعمال.

وأن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفُّح الأحوال، ولا يعوِّل في التفويض، فقد يخون الأمين، ويغش الناصح، فإذا قام بحقوق الأمة، وجب له عليهم الطاعة والنصرة إجماعاً، ويحرم الخروج عليه وخلعه ولو غير عدل.

خلافاً لطائفةٍ من العلماء، محتجين بخروج الحسين على يزيد بن معاوية، والصحيح التحريم؛ لما يترتب على ذلك من سفك الدماء، ونهب الذراري والأموال، وإخافة السبيل، وحرق الزرع والأشجار وغير ذلك.

وفي صحيح مسلم: «مَنْ أَتاكُمْ وأَمْرُكُمْ على رَجُلٍ واحدٍ يُرِيْدُ أن يَشُقَّ عَصاكُمْ، أو يُفرِّقَ جَماعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»(١).

وفي رواية: «فَمَنْ أرادَ أنْ يُفرِّقَ أَمْرَ هذه الأُمَّةِ وهي جميعٌ فاضْرِبُوهُ بالسيف كائناً مَنْ كان»(٢).

بل طاعته مطلوبة: قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[النساء: ٥٩].

فافتتح سبحانه هذه الآية بإيجاب طاعته على الخلق، وثنّى بإيجاب طاعة رسوله ﷺ، وثلَّث بطاعة أولي الأمر، والمراد بهم الأئمة الذين إليهم أمور هذه الأمة.

هكذا قال أنس بن مالك رضي الله عنه، حين سئل عن تفسير قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[النساء: ٥٩]، فقال: هم الأئمة الراشدون، فمنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ومن يلي أمور هذه الأمة إلى قيام الساعة، هكذا سمعت نبيكم ﷺ، فتجب طاعتهم إلا أن يأمروا بمعصيةٍ، فإن أمروا بها فلا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

ويجب على السلطان أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده، وقد لا يجد الأصلح لتلك الولاية، فيختار الأمثل فالأمثل، ففي الحديث:

---

(١) رواه مسلم (٤٩٠٢)، بلفظ: «من أتاكم وأمركم جميعٌ على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه».

(٢) رواه مسلم (٤٩٠٢).

«إنَّ اللهَ يُحِبُّ البَصِيرَ النّاقِدَ عندَ وُرُودِ الشُّبُهاتِ، ويُحِبُّ العاقِلَ الكامِلَ [عندَ ورود الشَّهَواتِ».

وإذا وجد رجلين أحدهما أعظم أمانةً، والآخر أعظم قوةً، قدَّم أنفعهما لتلك الولاية][1]، فيقدِّم في إمارة الحرب القوي الشجاع وإن كان فيه فجور، على الضعيف العاجز وإن كان أميناً.

فقد سُئل الإمام أحمد عن أميرين في الغزو؛ أحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما نغزو، فقال: أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، يُغزى مع القوي الفاجر، وفي الحديث: «إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هذا الدِّيْنَ بالرَّجُلِ الفاجرِ»[2]، وروُي: «بأقْوامٍ لا خَلاقَ لَهُمْ»[3].

وإذا كان السلطان شديداً استناب ليّناً، وإن كان ليّناً استناب شديداً؛ ليكون أمره معتدلاً، ولذلك كان أبو بكر الصديق يؤثر استنابة خالد بن الوليد، وعمر يؤثر عزله، ويولي أبا عبيدة بن الجراح؛ لأن خالداً كان شديداً كعمر، وأبا بكر كان ليناً كأبي عبيدة.

فإذا اجتهد السلطان في صلاح رعيته، كان من أفضل أهل زمانه،

---

(١) ما بين [ ] من نسخة برلين.

(٢) رواه البخاري (٦٢٣٢)، ومسلم (٣١٩)، وأحمد (٨٠٩٠).

(٣) رواه النسائي (٨٨٨٥)، وأحمد (٢٠٤٧٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٩٤٨)، و«المعجم الصغير» (١٣١).

وكان من أفضل المجاهدين، فقد رُوي: «يَوْمٌ مِنْ أيّامِ الإمامِ العادِلِ أَفْضَلُ مِنْ عبادَةِ سِتِّيْنَ سَنَةً»، وفي الحديث: «أَحَبُّ الخَلْقِ إلى اللهِ تعالى إمامٌ عادِلٌ، وأبغضُهُم إليه إمامٌ جائر»[1].

وقال عبدالله بن طاهر[2]: لا ينبغي للملك أن يظلم، وبه يُدفع الظلم، ولا يبخل، ومنه يتوقع الجود، وليقاتل ليكون الدين كله لله.

ففي الصحيحين: قيل للنبي ﷺ: يا رسولَ الله! الرَّجُلُ يقاتِلُ شجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقاتِلُ رِياءً، فأيُّ ذلكَ في سبيلِ اللهِ، قال: «مَنْ يُقاتِلْ لِتَكُونَ كلمةُ اللهِ هِيَ العُلْيا، فهو في سبيل الله»[3].

وكلمة الله اسمٌ جامعٌ لكلماته التي تضمنها كتابه، فمن عدل عن الكتاب، قُوِّم بالحديد، ففيه منافع للناس، فقوام الدين بالمصحف والسيف.

فعن جابر[4]: أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا؛ يعني: السيف، من عدل عن هذا؛ يعني: المصحف.

---

(١) رواه الترمذي (١٣٢٩).

(٢) قال الذهبي: عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب، الأمير العادل، أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر، سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٦٨٤ (٢٥٢).

(٣) رواه البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (٥٠٢٩)، وأحمد (١٩٦٣١).

(٤) الصحابي الجليل أبو عبدالله جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي المدني رضي الله عنه، روى له الجماعة، تهذيب الكمال: ٤/ ٤٤٣ (٨٧١)، الإصابة في تمييز الصحابة: ١/ ٤٣٤ (١٠٢٧).

ولا يحتجب عن الناس، فقد روى إمامنا أحمد في مسنده، والترمذي في جامعه، **عن عمرو بن مرة**[1] ﷺ **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما مِنْ إمامٍ أو والٍ يُغْلِقُ بابَـهُ دونَ ذوي الحاجَةِ والخلَّةِ والمَسْكَنَةِ، إلاّ أَغْلَقَ اللهُ أبوابَ السَّماءِ دونَ خلَّتِهِ وحاجَتِهِ ومَسْكَنَتِهِ»[2].

ولهـذا كـان بعض الحكـام لا يغيب في بيتـه، ولا يسكـن إلا في دهليزه.

وروى أبو داود والحاكم وصحَّح إسناده: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أمورِ النّاسِ شيئاً فاحْتَجَبَ عنهم حَجَبَهُ اللهُ يَوْمَ القيامَةِ»[3].

ورواه الطبـراني بلفـظ: «أيّمـا أميـرٍ احْتَجَـبَ عن النّاسِ فأهَمَّهُمْ احْتَجَبَ اللهُ عنهُ يَوْمَ القيامةِ»[4].

وليرفق برعيته، ويجتهد بالنصح لهم، **ففي مسلم عن عائشـة** ﷺ **قالت:** سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ من أَمْور أُمَّتِي شيئاً فَشَقَّ عليهم فاشْقُقْ اللهمَّ عليـه، ومَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أُمتي شيئاً

---

(١) الصحابي الجليل عمـرو بن مرة بن عبس أبو طلحـة الجهني ﷺ، روى له الترمذي، تهذيب الكمال: ٢٢/ ٢٣٧ (٤٤٤٩)، الإصابة في تمييز الصحابة: ٤/ ٦٨٠ (٥٩٦٥).

(٢) رواه أحمد (١٨٠٣٣)، والترمذي (١٣٣٢).

(٣) التلخيص الحبير (٢٠٨٩)، وذكر له رواية لأبي داود والحاكم.

(٤) التلخيص الحبير (٢٠٨٩)، وذكر له رواية الطبراني في «المعجم الكبير».

فرفق بهم فارْفَقْ بِهِ»[١].

وفي الصحيحين عن معقل بن يسار[٢] رضي الله عنه **قال**: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيْهِ اللهُ رَعِيَّةً يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلاّ حَرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّة»[٣].

وفي روايةٍ: «فلم يُحِطْها بِنَصِيْحَتِهِ، لن يجدَ رائحةَ الجَنَّةِ».

وفي روايةٍ لمسلم: «ما مِنْ أميرٍ يَلِيْ أُمُورَ المسلمين ثمَّ لا يجتهدْ لهم، وينصحْ لهم، إلاّ لم يَدْخُلَ معهم الجَنَّة»[٤].

[وعلى السلطان أن يأخذ المال من حِلِّه][٥]، ويضعه في حقِّه، ولا يمنعه: من مستحقِّه، فتُحمل إليه الأموال، ويبارك له فيها.

وحُمل مرةً إلى الإمام عمر بن الخطاب مالٌ عظيمٌ من الخمس، فقال: إن قوماً أدُّوا الأمانة في هذا لأُمناء، فقال له بعض الحاضرين: إنك أديت الأمانة إلى الله، فأدوا إليك الأمانة، ولو رتعت لرتعوا.

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢٦)، ورواه أحمد (٢٤٦٢٢).

(٢) الصحابي الجليل أبـو علي معقل بن يسار المزني رضي الله عنه، روى لـه الجماعة، تهذيب الكمال: ٢٨/ ٢٧٩ (٦٠٩٥)، الإصابة في تمييز الصحابة: ٦/ ١٨٤ (٨١٤٨).

(٣) رواه البخاري (٦٧٣١)، ومسلم (٤٨٣٤).

(٤) رواه مسلم (٤٨٣٦).

(٥) ما بين [ ] من نسخة برلين.

وما أخذ نوابه من مال المسلمين بغير حق؛ كالهدايا والرشوة، فعليه أخذهُ منهم، ودفعه لأربابه، فإن جُهلوا وضعه في بيت المال، ففي الحديث: «هدايا الأُمَراءِ غُلُوْلٌ»[1].

وفي حديث أحمد وأبي داود: «مَنْ شَفَعَ لأخيهِ شفاعةً، فأهدى له عليها هَدِيَّةً فَقَبِلَها، فَقَدْ أَتى باباً عظيماً مِنْ أبوابِ الرِّبا»[2].

وعن ابن مسعودٍ قال: السحتُ أن يطلب الرجل الحاجة للرجل فتقضى له، فيهدي إليه هديةً فيقبلها.

ونُقل عن عمر وعلي وابن مسعودٍ وابن عباس ومسروق[3]، في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[المائدة: ٤٢] نزلت في اليهود، كانوا [يسمعون] لمن يكذب عندهم، ويأخذون الرشوة، ممن يحكمون له، والهدية لمن يشفعون فيه.

وكان النبي ﷺ يقول: «أَبْلِغُوني حاجَةَ مَنْ لا يستطيعُ إِبْلاغَها؛ فإنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ ذا سُلطانٍ حاجةً مَنْ لا يستطيعُ إبلاغَها ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ على الصِّراطِ

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٢٠٢٦١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٩٦٩).

(٢) رواه أبو داود (٣٥٤٣)، وأحمد (٢٢٢٥١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٥٣).

(٣) قال الذهبي: مسروق بن الأجدع بن مالك، الإمام القدوة العلم، أبو عائشة الوادعي الهمداني الكوفي، روى له الجماعة، سير أعلام النبلاء: ٤/ ٦٣ (١٧)، تهذيب الكمال: ٢٧/ ٤٥١ (٥٩٠٢).

يومَ تَزِلُّ الأقْدامُ»[1].

ويجب على السلطان إقامة الحدود على المشروف والشريف، والقوي والضعيف، ويكون السلطان شديداً في إقامة الحد، لا تأخذه رأفة في دين الله فيعطله، ويكون قصده رحمة الخلق، بكفّ الناس عن المنكرات، لا إشفاء غيظه، وإرادة [العلو؛ فإن][2] إقامة الحد رحمة من الله بعباده، ولا يحل تعطيله بعد بلوغه إليه، لا بشفاعةٍ ولا بهدية ولا غيرهما، ولا تحل الشفاعة فيه، ومن عطّله لذلك، فعليه لعنة الله.

وفي حديث أبي داود: «مَنْ حالَتْ شَفاعَتُهُ دونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ فقد ضادَّ اللهَ في أَمْرِهِ، ومَنْ خاصَمَ في باطلٍ وهُوَ يَعْلَمُ، لم يَزَلْ في سَخَطِ اللهِ حتّى يَنْزِع»[3].

ولما شفعوا عند النبي ﷺ في المخزومية، التي أراد قطع يدها، غضب وقال لأسامة: «أَتَشْفَعُ في حدٍّ مِنْ حدودِ اللهِ، إنَّما هَلَكَ بنو إسرائيلَ أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحَدَّ، والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ سرقَتْ لقطعْتُ يَدَها»[4].

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤١٤).

(٢) ما بين [ ] من نسخة برلين.

(٣) رواه أبو داود (٣٥٩٩).

(٤) رواه البخاري (٦٧٨٨)، ومسلم (٤٥٠٦).

وروى الإمام مالك في «الموطأ»، أن جماعةً مسكوا لصاً ليرفعوه إلى عثمان ﵁، فتلقاهم الزبير فكلمهم فيه، فقالوا: إذا رُفع إلى عثمان فاشفع فيه عنده فارتفعوا إلى عثمان، فقال: إذا بلغت الحدود السّلطان فلعن الله الشافع والمشفع؛ يعني: الذي يقبل الشفاعة.

وسُرق رداء صفوان بن أمية[1]، فأمسكه وأتى بـه النبي ﷺ، فأمر بقطع يده، فقال: يا رسول الله! أعلى ردائي تقطع يده؟ أنا أهبه له، فقال: «فَهَلاّ قبلَ أن تأتِيَني بِهِ غفرت»، ثم قطع يده[2]، رواه أهل السنن.

وليس من حسن السّياسة والإحسان للرعية، أن يفعل ما يهوونه، ويترك ما يكرهونـه، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون: ٧١].

وفي سنن النسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً: «حَدٌّ يُعْمَلُ به في الأرضِ خَيْرٌ لأهْلِ الأرضِ مِنْ أن تُمْطَرَ أربعينَ صباحاً»[3].

وهذا لأن المعاصي سببٌ لنقص الـرزق والخـوف، فإذا أُقيمـت الحدود نقصت المعاصي، فيحصل الرزق والنصر، فلا يجوز أن يُؤخذ

---

(١) الصحابي الجليل صفوان بن أمية بن خلف أبو وهب القرشي الجمحي ﵁، روى له الجماعة سوى البخاري، تهذيـب الكمال: ١٣/ ١٨٠ (٢٨٨١)، الإصابة في تمييز الصحابة: ٣/ ٤٣٢ (٤٠٧٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٩٥)، والنسائي (١٦٩٩٢).

(٣) رواه النسائي (٤٩٠٤)، وابن ماجه (٢٥٣٨).

من الزاني أو السارق أو الشارب أو قاطع الطريق ونحوه، مالاً يُعطل به الحدّ، لا لبيت المال ولا لغيره، فإن فعل السلطان ذلك عطّل الحد، وأكل السّحت، وأشبه اليهود الذين قال فيهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[المائدة: ٤٢] أي: الرشوة، التي تُسمى: البرطيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قد أجمع المسلمون على أن تعطيل الحد بمال يُؤخذ أو غيره لا يجوز، وأجمعوا على أنه مال السّحت خبيث، وأن ذلك سبب سقوط حرمة السلطان، وسقوط قدره من القلوب، وانحلال أمره.

قال: وأصل البرطيل هو الحجر المستطيل، سُميت به الرشوة؛ لأنها تلقم المرتشي عن التكلُّم بالحق، كما يلقمه الحجر الطويل، وفي الأثر: «إذا دخلت الرشوة من الباب، خرجت الأمانة من الكوة»، وأنشدوا:

إذا أَتَتِ الهَدِيَّةُ دارَ قَوْمٍ
تَطايَرَتِ الأمانَةُ مِنْ كُواها

وإذا ترك السلطان إنكار المنكرات، وإقامة الحدود لمالٍ يأخذه، **قال ابن تيمية:** كان بمنزلة مقدم الحرامية، الذي يقاسم المحاربين على النهب، وبمنزلة القواد الذي يأخذ ما يأخذه ليجمع بين اثنين على فاحشة، وكانت [حاله] شبيهاً بحالة عجوز السوء، وأيضاً [فغاية] مريد الرئاسة أن يكون كفرعون، وجامع المال أن يكون كقارون، وقد بيّن الله في كتابه حالاهما.

وقد زعم ذو الجهالة أن السلطان لا يقوم إلا بعطاء، والعطاء لا يكون إلا بمال، والمال لا يحصل إلا باستخراجه من حلّه وغير حلّه، فصاروا نهّابين وهّابين، ويقولون: لا يمكن أن يتولى على الناس إلا من يأكل ويطعم، أولئك هم الكاذبون، والعلماء الذين يقرونهم على ذلك كاليهود الذين قال الله فيهم: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٩].

وقال أبو بكر الصديق: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ النّاسَ إذا رَأَوا المُنْكَرَ فلم يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أن يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقابٍ منه»(١).

وفي حديثٍ آخر: «إنَّ المعصيةَ إذا [خَفِيَتْ] لم تَضُرَّ إلاّ صاحِبَها، ولكنْ إذا ظَهَرَتْ فلم تُنْكَرْ ضَرَّت العامَّةَ»(٢).

وإذا طلب السلطان أحداً لإقامة الحد عليه، فاحتمى بأحدٍ، فمن حماه فهو ممن لعنه الله ورسوله، ففي مسلم: «لَعَنَ اللهُ مَنْ أَحْدَثَ حَدَثاً، أو آوى مُحْدِثاً»(٣)، فكل من آوى محدثاً من هؤلاء المحدثين فقد لعنه الله ورسوله.

قال ابن تيمية: وإذا طلبهم السلطان، أو نوابه لإقامة الحد فامتنعوا،

---

(١) رواه أحمد (١٦)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٧٦٠١).

(٣) رواه أبو داود (٢٦١٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٠٩٣)، و«المعجم الكبير» (٤٩٧).

وجب على المسلمين قتالهم، باتفاق العلماء، وقتال من [يحميهم] ويعينهم.

قال: وعلى السلطان قتال كل طائفةٍ ممتنعةٍ من التزام شريعة من شرائع الإسلام، الظاهرة المتواترة؛ كالصلاة أو الزكاة أو الصيام، أو كانت مستحلّةً ما كان من المحرمات الظاهرة المجمع عليها؛ كنكاح ذوات المحارم، والفساد في الأرض، فيجب جهادها حتى يكون الدين كُلُّه لله، باتفاق العلماء، كما قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة ﷺ مانعي الزكاة، وكان قد توقف في قتالهم بعض الصحابة، [ثم اتفقوا على قتالهم][1].

ثم ليعلم السلطان أن ولاية أمور الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين والدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع حاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس.

قال النبي ﷺ: «إذا خَرَجَ ثلاثةٌ في سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّروا أَحَدَهُمْ»، رواه أبو داود.

وروى أحمد في مسنده، عن النبي ﷺ، قال: «لا يَحِلُّ لِثلاثَةٍ يكونوا [بِفَلاةٍ] مِنَ الأرضِ إلاّ أَمَّروا عليهم أَحَدَهُمْ»[2].

ولهذا رُوي أن السلطان ظلُّ الله في الأرض، ويُقال: ستون سنةً من إمامٍ جائرٍ أصلح من ليلةٍ واحدةٍ بلا سلطان.

---

(١) ما بين [ ] من نسخة برلين.

(٢) رواه أحمد (٦٦٤٧).

ولهذا كان السّلف الصالح؛ كالفُضيل بن عياض[1]، وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان؛ لأن في صلاحه صلاح المسلمين، ولا يقصد السلطان في سلطنته العلو والفساد، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[القصص: ٨٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الناس في ذلك أربعة أقسام:

قسمٌ يريدون العلو على الناس، والفساد في الأرض؛ وهو معصية الله، وهؤلاء الملوك ورؤساء المفسدين كفرعون وحزبه، وهؤلاء شر الخلق.

وقسمٌ يريدون الفساد بلا علو؛ كالسراق والمجرمين، من سفلة الناس ونحوهم.

وقسمٌ يريدون العلو بلا فساد؛ كالذين عندهم [دين][2] يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس.

وقسمٌ هم أهل الجنة؛ الذي لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً.

---

(١) قال الذهبي: الفضيل بن عياض بن مسعود أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني، المجاور بحرم الله، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، روى له الجماعة سوى ابن ماجه، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٤٢١ (١١٤)، تهذيب الكمال: ٢٣/ ٢٨١ (٤٧٦٣).

(٢) ما بين [ ] من نسخة برلين.

وفي مسلم: قال رسول الله ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، ولا يَدْخُلُ النّارَ مَنْ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمانٍ»، فقال رجل: يا رسول الله! إنِّي أُحِبُّ أن يَكُونَ [ثَوْبِي] حَسَناً، أَفَمِنَ الكِبْرِ ذاك؟ قال: «لا، إنَّ اللهَ جَمِيْلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النّاسِ»[(١)]، فبطر الحق: جحده، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم، وهذه حال من يريد العلو والفساد.

ومن أقبح البدع المحرمة: تقبيل الأرض بين يدي الملوك، وحبهم لذلك، ورضاهم به، فإن كان سجوداً بأن يُلاقي بجبهته الأرض، قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: فسواء كان إلى القبلة أو غيرها، وسواء قصد السجود لله أو غفل، هو حرام، وفي بعض صوره ما يقتضي الكفر أو [يُقاربه][(٢)].

وسُئل ابن الصلاح[(٣)] عن هذا السجود، فقال: هو من عظائم الذنوب، ويُخشى أن يكون كفراً.

وفي بعض كتب السادة الحنفية: أنه يُكفّر مطلقاً.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥).

(٢) ما بين [ ] من نسخة برلين.

(٣) قال الذهبي: ابن الصلاح، الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الموصلي الشافعي، سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ١٤٠ (١٠٠).

وبعضهم قال: إن أراد التحية فهو حرام، وإن لم تكن له نيةٌ كفر عند أكثرهم.

فشأنك أيها الملك من الأمور إنما هو العدل، الذي تُوزن الأشياء بميزانه، وهو [الغرض الذي] الرفق من شروطه، [والأناة][1] من أركانه، وجعل يومه كعبادة سبعين عاماً في فضله وإحسانه.

ومن العدل إقامة حدود الله، الذي أقام بها وجه الربيع حنيفاً، وحدٌّ منها يُقام في الأرض خير لها من أن تُمطر أربعين خريفاً.

ومما يُؤكد عليك الوصية أن تُنزل الناس منازلهم، فتُقيل ذوي الهيئات [عثراتهم]، وإذا خطروا في مذهب ريبةٍ، فاسحب ذيل التجاوز على خطواتهم، إلا ما كان من حدود الله، فإنه يُقام على الشريف كما يُقام على المشروف، فلا معروف إلا بالتسوية بين أوامر المعروف.

وعليك أيها السلطان بمشورة العلماء غير المداهنين، وكن معهم حيث حلُّوا، وإلا اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فضلُّوا وأضلُّوا، فاتخذهم لمجلسك جمالاً، ولحكمك مقالاً، ولسهامك نصالاً، وما استعجم عليك من حكم فاكشف منهم خبره، واعمل فيه بأمر الشرع؛ فإن المعروف ما عرفه، والمنكر ما أنكره، فامش أيها الملك على إثر أقوالهم، وإذا سئلت غداً، فاجعل الحوالة على سؤالهم.

وقد قيل: ينبغي للملك أن يتخذ العلماء شعاراً، والصلحاء دثاراً،

---

(١) ما بين [ ] من نسخة برلين.

حتى تدور مملكته بين نصائح العلمـاء، ودعـوات الصلحاء، ولا يتبع ما أحدثه من القوانين ملوك هذه الأيام، ورأوا أنها أنفع، ولو أضرت الأنام، فإن إثمها أكبر من نفعها، كيف لا وقد قدموها على ما جاء به نبيهم، فأماتوا بذلك سُنناً، وأحيوا بدعاً، وتفرقوا فيما أحدثوا من الأحاديث شِيَعاً.

وهو رأي من اتبع النظر، ورأي الآيـة والخبر، فحكمة الله مطوية فيما يأمر به على ألسنة رسله، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه، أو يستدلُّ عليه ذو العقل بعقله.

ألا وأنها مما تُخفق موازين الأعمال، وأنها لا تَربُو عند الله، وإن رَبت عند الناس، وصاحبها وإن أثرَتْ بيده فهو في غدٍ من ذوي الإفلاس، فهذه كلها خبيثات المطاعم، وبيلات المظالم، ثقيلات المغارم.

ألا وإن الزاد من الحلال مما يزيد القلوب تنويـراً، ومن السنة أن يبارك في القليل حتى يصير كثيراً، وقد قيل: إذا ظفرت البطون بطيِّب اللقمة، تفجَّرت على الألسنة ينابيع الحكمة.

فينبغي للسلطان الحازم أن يضرب أعنـاق هـذه الحوادث بسيوف الأبطال، ويقبل الحوالـة فيها على خزائن ـ رحمـة الله ـ التي لا ينقصها كثرة الأفضال، فإنه يجزي الحسنة بعشر أمثالها، ويعوض عن قليل حرام الدنيا بكثير حلالها.

ولْيُفِيض العدل على الرعيـة إفاضـة اللباس، ويطهر أرجاءهـم من الظلم تطهير الأرجاس، فخير سنن الخير ما بقي عمره مخلداً، وعُمل به

حتى يكون أجره على ترديد الأيام مردداً.

وليبذل جهد سيرته الحسنة ليكون ممن سنَّ سنةً حسنـةً، فإن قال قائلٌ: إن مَنْ تقدَّمك عجز عن هذه الحسنة، فقل: كل شاة برِجْلها ستناط، وكل حسنـةٍ وسيئةٍ بصاحبهـا ستُحـاط، فنقـول بعدها: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾[فصلت: ٢٩].

وحكى ابن السبكي(١) وغيره: أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام حضر عند السلطان الملك الصالح أيوب، وكان قد اطلع على خانة يُباع فيها الخمـر، ويُفعل فيها المنكرات، فقال: يا أيوب! كيف يسعك في دينك أن تكون الخانة الفلانية في سلطانك، فقال: يا مولانا! أنا ما عملت هذا، بل هو من زمان، فقال: أفترضى أن تكون ممن يقول يوم القيامة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣]، فما وسعه إلا أن أمر بإبطال ذلك.

وسُئل الشيخ بعد أن انفصل المجلس: كيف تجاسرت على هـذا السلطان مع شدة سطوته؟ فقال: رأيته قد تعاظم في موكبه، فأردت أن أهينه، فقيل له: فما خفته؟ فقال: استحضرت هيبة الله في قلبي، فصرت أراه كالقط، هكذا تكون العلماء العاملين، جعلنا الله منهم. آمين.

---

(١) قال الذهبي: السبكي، قاضي القضاة، تاج الدين أبـو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام، السبكي الشافعي، سير أعلام النبلاء: ٨/ ٣٧٨.

وكان الفراغ من تعليق هذا التاريخ العظيم بمصر يوم التـاسع من ذي الحجة الحرام، من شهور سنة تسع وعشرين وألف.

وكُتب برسم حَدَقَـةِ الوجـود، وحَدِيْقـة الجود، الرَّافل في أبواب السعادة، والمترسل برداء الفخر والسّيادة، من هو درةٌ في يتيمة الدهر، والواسطة في قلادة النحر، من أطلع الله شموس سعادته مشرق الأنوار، وألبس الدنيا من حُلل سعادته ملابس الافتخار.

مولانا وأولانـا، رئيس الديار الشاميـة، ومزين الديار المصريـة، المحروس بخير البريّة، ومن تَسمّى بأفضل البرايا بعد الرسول، والله على ما أقول، أعني: سيدنا ومولانا، الخجكي المخدومي، سيدي أبو بكر الشّامي الحنبلي، الموفقُ بفضلِ الله، والمحبوبُ لوجه الله، خلّد الله عليه سَوابغ نعمه، وأسكنه فسيح جنته، بمحمدٍ وصحابته. آمين.

وصلى الله على سيدنـا محمـد وآلـه وصحبـه وسلم، تمّ التاريخ المبارك، بحمد الله وعونه، والحمد لله وحده.

❑ ❑ ❑

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

❐ ❐ ❐